جامعة الجزائر (2)

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ

مذكرة بعنوان:

موقف الطرق الصوفية التونسية من الحماية الفرنسية

1881 -1939

(الطريقة القادرية و التجانية)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ضفتي البحر الأبيض المتوسط – تاريخ الحديث والمعاصر –

إعداد الطالبة:

قارة فاطمة

تحت اشراف:

أ/د. يحياوي مسعودة

السنة الجامعية : 2011-2012

إهـــداء

إلى كل من يحمل قلبا ينبض الحب إلى والديه ، لا يعدم رضاها و رضى المولى ..

إلى روحي والدي و والدتي الكريمة أهدي ثمرة جهد و كفاح سنوات...

و إلى رفيقة الدرب زوجي الفاضل

و إلى كل من وقف إلى جانبين مساعدا أو موجها بالكلمة أو بالفعل ...

و إلى كل المخلصين المؤمنين .

شكر

لا يفوتني أن أقدم الشكر لأستاذتي الدكتورة يحياوي مسعودة على توجيهاتها الهادفة و تشجيعاتها المستمرة ، و تحملها على مراجعة و تصحيح هذا البحث ، فلها مني كل التقدير و الاحترام ، و أطلب من المولى عز وجل لها الصحة و العافية و أن يديمها في خدمة العلم ، و لكل من أساتذتي الذين قدموا لي يد المساعدة .

الفهرس

مقدمة :

إن التطرق إلى موضوع الطرق الصوفية في البلاد التونسية لم يأخذ الحجم الذي يستحقه مقارنة بالاهتمام الذي وجدته من قبل الباحثين بدول الجوار (الجزائر ، المغرب) ، و إن كانت هناك بعض الكتابات ما هي إلا دراسات مغاربية قليلة مثل كتابات نذير أحمد و جميل أبو ناصر ..إلخ . وهي في الغالب دراسات باللغات الأجنبية ،إلا أن هناك بعض الدراسات وهي على شكل أطروحات مثل دراسة التليلي العجيلي الذي قام بدراسة الطرق الصوفية التونسية وموقفها من الحماية الفرنسية ، من خلال أخذه لبعض الشواهد التاريخية معتمدا على المخطوطات و الأرشيف ، و هو يتمثل في المراسلات التي كانت تدور بين شيوخ الزوايا و مساعد القنصل روا .

لقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع لاعتبارات عدة منها ما تطرقنا إليه سابقا ومنها ما يتعلق بالطريقة (القادرية التيجانية)،التي استطاعت من بسط نفوذها داخل المجتمع التونسي في ظرف وجيز ،هذا بالإضافة خروجها عن جوهرها الديني إلى المجال السياسي كما أن الطريقة القادرية و التيجانية في البلاد التونسية أثارت جدلا كبير في إستراتيجيتها العدائية وكذلك في مواقفها السياسية تجاه الوجود الفرنسي والمقاومة الشعبية والحركة الوطنية .

وبناءا على ما سبق فالدراسة تقوم على دراسة قضية جوهرية تتعلق بمواقف الطرق الصوفية وبالأخص الطريقة القادرية و التيجانية تجاه الحماية الفرنسية على تونس ،وهو يبرز أساسا في موضوع الطريقة (التيجانية والقادرية) وطبيعة علاقتها بالحكام ومواقفها تجاه الوجود الفرنسي بتونس وهذه الدراسة تطرح إشكالية تتعلق بمحاولة توضيح دور الطرق الصوفية من الوجود الفرنسي رغم ما تتمتع به من نفوذ واسع داخل المجتمع التونسي وخاصة الجنوب .

وبحثنا يحاول أن يجيب على الإشكالية التي تقوم على :فيما يتمثل موقف الطريقة التجانية والقادرية من فرض الحماية الفرنسية على تونس ،فباعتبار أن الطرق تعرف انتشار واسع في تونس ومن جهة ثانية ما هي السياسة التي انتهجتها السلطة الاستعمارية تجاه الطرق ،علما بان الإدارة الفرنسية لها تجربة مع الطرق الصوفية بالجزائر .

وهل الطريقة التيجانية والقادرية ملأت لفراغ الروحي وسط نفوذها داخل المجتمع التونسي ،إذا كانت السلطة الفرنسية لها تجربة مع الطرق الصوفية بالجزائر .فما هي السياسة التي انتهجتها تجاه الطرق الصوفية التونسية ؟،وهذه الإشكالية تطرح بدورها الكثير من التساؤلات ،فما هو موقف الطريقة القادرية و التيجانية من الوجود الفرنسي من ناحية وموقفها تجاه المقاومات الشعبية والحركة الوطنية .

ولدراسة هذه الإشكالية ،اعتمدنا على بعض المصادر و المراجع المتنوعة باعتبارها أساسية ، سواء ما يتعلق في ظل الوجود الفرنسي بتونس ، إلى جانب مصادر الطريقة و مراجعها الأساسية ، هذا بالإضافة إلى الأرشيف ، مما يساعدنا على إثراء الموضوع .و لدراسة هذا الموضوع يتطلب التنقل إلى عين المكان ، و لا سيما و إن المادة الأساسية موجودة في الخزانة الوطنية التونسية ومركز الأرشيف بفرنسا .

و قد اعتمدنا في دراستنا للموضوع على المنهج عرض الأحداث و تحليل و المقارنة للوصول إلى بعض الرؤى التي توضح لنا بعض الحقائق ، مع تدعيمها ببعض الجداول و الصور و الخرائط ، حتى أسهل القارئ أخذ فكرة شاملة على الموضوع .

فقد قسمت بحثي إلى أريعه فصول ، حيث تناولت في المدخل تعريف التصوف و تاريخه و نشأته .مبرزا نشأة التصوف و تاريخه وأهم مراحله و بوادر ظهورها في شمال افريقيا .

أما الفصل الأول تطرقت إلى تاريخ انتشار الطرق الصوفية بالمغرب العربي ، و تأسيس الطريقة التيجانية والقادرية و انتشارهما في المغرب العربي (الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى) .ورغم أن بلاد المغرب العربي الكثير ن الطرق كالطريقة السنوسية و الرحمانية ..، و بما أن الدراسة متعلقة بالطريقة التجانية و الطريقة القادرية ، فأنني تعرضت إلى الجذور التاريخية للطريقة القادرية و

التجانية ، لا من حيث التأسيس و الانتشار في المغرب العربي ، و لتناول الإشكالية المطروحة فلا بد على القارئ أن يتساءل على مصدر الطريقتين و كيف حلا بالبلاد التونسية ، و باد المغرب العربي بصفة عامة و لتطرق إلى انتشار الطريقتين في البلاد لتونسية فيجب التطرق إلى الجزائر باعتبارها منبع الطريقة التجانية و مصدر انتشارها في الشمال الإفريقي و حتى داخل القرة الإفريقية ، و الطريقة القادرية التي يرجع مصدرها على بلاد الشرق و كذلك إلى الترابط و الاتصال الوثيق بين فروع الطريقة القادرية بالمغرب العربي (تونس ،الجزائر ، المغرب الأقصى)

كما تعرضت في الفصل الثاني إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية للبلاد التونسية قبيل وأثناء الحماية الفرنسية في تونس حتى نستطيع أن نوضح الظروف المحيطة بالطرق الصوفية.

كما نشير إلى مدى نفوذ الطريقة القادرية و التجانية يبين قبائل التونسية و الوضع الاجتماعي لسكان تونس لا من حيث الجانب الثقافي و الطبقية و حالة أهالي الريف و المدن . الجانب الاقتصادي نتعرض فيه إلى النظام الضريبي خاصة ما يتعلق بالممتلكات العقارية و أصحاب الامتيازات ، أما ما يتعلق بالوضع السياسي فأنني أجد بان البلاد التونسية عرفت فراغ سياسي خلال فترة قبيل و أثناء الاحتلال الفرنسي ، إذ بدأت بودار نشاطها إلا في بداية القرن العشرين و ذلك مع ظهور فئة النخبة التي انتهجت فكر الحركة الوطنية .

أما الفصل الثالث تعرضت فيه إلى السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية في البلاد التونسية ، و موقف الطرق الصوفية من الوجود الفرنسي في تونس ، مسلطا الضوء على الطريقة التيجانية و القادرية ، باعتبارهما أهم الطرق الصوفية في تونس .على أن الطريقة القادرية تأتي في صدارة الطرق الصوفية مقارنة بالطرق الصوفية الباقية و كذلك الطريقة التجانية التي لها وزن ثقيل و مكانة هامة بين المجتمع المغاربي هذا بالإضافة إلى إدارتها المركزية الموجودة بتماسين و عين ماضي بالجنوب الجزائري ، و هنا نحاول أن نبرز موقف هذه الطرق من الوجود الفرنسي 1881م و من السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية و الأخذ بسياسة فرق تسد و استعمال مبدأ قانون الامتيازات وذلك من أجل زرع نوع من التنافس بين الطرق الصوفية من أجل المحافظة على نفوذها و سط القبائل التونسية ، كما نحاول أن نبرز الدور الجهادي الذي لعبته الطريقتين من

حيث التعبئة و دعم العمل المسلح مثلما شهدتها الجزائر لتي كانت معظم مقاوماتها الشعبية نابعة من الطرق الصوفية مثل مقاومة الأمير عبد القادر .

أما الفصل الرابع تطرقت فيه إلى موقف الطرق الصوفية من المقاومات الشعبية التي قام بها المجتمع المدني التونسي ، و كذلك موقفها من الحركة الوطنية التونسية (الحزب الدستوري الحر) فيما بعد.و هنا نبرز موقف الطريقتين من جناحين أعلن رفضهم للوجود الفرنسي و الإيمان بمبدأ الاستقلال ، فالجناح الأول و هو المقاومات الشعبية الذي لابد من الإشارة إليه لا من حيث التنظيم و الدور الذي لعبه المشايخ الطرق الصوفية في الدعوة إلى العمل المسلح ، كما حاولت أن التطرق إلى أسماء و أماكن القبائل المقاومة لمعرفة انتماءاتها الطرقية لنستطيع توضيح موقف الطرق ، أما الجناح الثاني و هم أصحاب التيار الحركة الوطنية و الفكر الإصلاحي ، حاولت أن أبرز العلاقة السياسية بين الطريقتين و الحركة الوطنية .و هذا بعد الإطلاع على العلاقة السياسية بين الحركة الوطنية و جمعية العلماء من جهة والطرق الصوفية .

و جاءت الخاتمة عبارة عن رد على الإشكالية المطروحة ، و الاستنتاج الذي توصلت إليه من خلال هذا البحث ، إلا أن هذا الموضوع فهي قابلة للمزيد من البحث ، أما دراستي هذه ما هي إلا مرحلة أولية نحو البحث الأكاديمي .

تعريف التصوف و تاريخه:

1- نشأة التصوف و تاريخه:

يعتبر التصوف الإسلامي جزءا أساسيا في التراث الإسلامي حيث تبوأ مكانة هامة في الفكر العربي الإسلامي، والاهتمام بالتصوف قديم، تناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام إضافة إلى جهود المستشرقين . ولم يتفق هؤلاء على رأي سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله، فاختلفت الآراء والمشارب حوله. فالتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة بل إن جذوره وعروقه تمتد في أي فكر ديني عموما، حتى إن كثيرا من الدارسين ربطه بأصول غير إسلامية، كالمسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية. ورأي آخر يرفض هذه الصلات جملة وتفصيلا ويرده إلى أصوله الإسلامية ومنابعه الأولى القرآن والسنة.

وأصل كلمة التصوف ينسبها البعض إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية كان يلقب ب (صوفة) وإسمه هو الغوث بن بركان، أو في رواية الغوث بن مر كما أشار الزمخشري في أساس البلاغة والفيروز آبادي في قاموسه المحيط إلى أن قوما في الجاهلية سموا بهذا الاسم وكانوا يعبدون الله في الكعبة ومن تشبه بهم سمي صوفي. ويعتبر هذا دليلا على أن النسك كان مذهبا معروفا في الجاهلية ومنهم نشأت طبقة المتحنفين مثل ورقة بن نوفل.[1]

أما التصوف بين المسلمين فقد عرف بأنه مذهب روحي وإن اختلف مع الفرق المذهبية كأهل السنة، الشيعة، المعتزلة أو غيرهم من المذاهب، حيث يمكن لأصحاب هذه المذاهب الانخراط في المذهب الصوفي.[2] ويعنى أصل التصوف العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه عامة الناس من مال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.

[1]- محمد عبد المنعم الخفاجي:**الأدب في التراث الصوفي**، دار غريب للطباعة، القاهرة 1938، ص23-24

[2]-عبد الرزاق محمد أسود:**المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب**-المجلد الثاني، ط1، بيروت 1981، ص 7

ورغم اختلاف العلماء حول أصل التسمية إلا أنهم اتفقوا على أن الصوفيين هم الذين يسعون وراء الحقيقة ومحاسبة النفس على الأفعال.[1]ويقول الإمام أبو القاسم القشيري: " أن المسلمين بعد رسول الله (ص) ويتسمى أفضالهم في عصرهم بتسمية صحبة رسول الله إذ لا فضيلة فوقها فقال لهم الصحابة وما أدراكم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة التابعين ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم من له عناية بأمر الدين الزهاد أو العباد، ثم ظهر البدع وحدث التداعي بسبب الفرق وانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى لحافظون قلوبهم عن طواق الغفلة باسم التصوف وقد اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل مرور مائتي هام علة الهجرة".[2] و يقول كاتب مادة التصوف في دائرة المعارف الإسلامية « ورد لفظ صوفي لقبا منفردا لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، إذ نعت جابر بن حيان و هو صاحب علم الكيمياء شيخا من أهل الكوفة له مذهب خاص و أطلقت هذه اللفظة أول ما أطلقت على أبي هاشم الصوفي الذي قال عنه سفيان، لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء»[3].

ويعتبر الجاحظ أول ما استعمل لفظ صوفي في كتابه البيان و التبيين، حيث يقول: إن الصوفية من المناسك**[4]**، و عرف التصوف منذ القرون الأولى للهجرة زهدا و تنسكا ثم تطور في التنظيم و الهيكلة حتى غدا سلطة مركزية تحكم حياة الناس و تنظمها في إطار روحي وسامه وقوامه فلسفة روحية ترتكز على الذكر و الاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهفة يتحملها المريد طاعة الله حتى تذكو نفسه و ترقى إلى معارج عليا من الإيمان و تتبوأ منازل سامية من الصفاء والإشراق. و صفة الصوفي: الخوف قوامه، الذل لله حيلته، الرهبة باطنه، الرغبة ظاهره، الخير مراده، الصبر أنيسه، الرضا رفيقه، الشكر زاده، الثقة كنزه، الفكر طريقه، التسليم مذهبه، التواضع رفعته، الفقه منهجه، الصدق ضالته، الإخلاص مراده، الرسول ﴿ص﴾ مقصوده، الله سبحانه تعالى معبوده، الشكر ذكره، الدعاء عمله، ما يقرب إلى النار عدوه، ما يقرب إلى الجنة أليفه، بر الوالدين سروره، صلة الرحم و إدخال السرور

---

[1]- محمد لطفي جمعه: **تاريخ فلاسفة الإسلام**، القاهرة، 1975، ص 278.

[2]- شعبان محمد إسماعيل، **مختصر إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد الغزالي**، تحقيق وتعليق، القاهرة، 1978، ص 7،6.

[3]- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، القاهرة 1989.

[4]- محمد ثابت و آخرون – **دائرة المعارف الإسلامية**، الجزء الخامس، القاهرة 1963، ص 265.

على عباد الله وصوله، الرحمة بخلق الله تعالى خطوته و القرآن الكريم خلوته، الحضور بقلبه مع الحق سبحانه تعالى جلوته[1].

2- مراحل علم التصوف و تطوره:

عرف التصوف مراحل عديدة كانت كل منطقة من العالم الإسلامي عنوانا لمرحلة، ونحن في دراستنا هذه نحاول التطرق للمرحلة التي وصل فيها التصوف لإفريقيا وكيفية انتشاره بين أفراد المجتمع في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء :

2-1/المرحلة الأولى:

تسمى بمرحلة الزهد، وكانت بين القرنين الأول و الثاني الهجريين، فقد كان هناك أفراد من المسلمين أقبلوا على العبادة بأدعية و قربات و كانت لهم طريقة زهد في الحياة تتصل بالمأكل والملبس و المسكن و قد أرادوا العمل من أجل الآخرة فآثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك و يعتبر الحسن البصري المتوفى سنة 728م [2]، و رابعة العدوية المتوفاة سنة 801م[3]، من أهم أعلام هذه المرحلة.

2-2/المرحلة الثانية:

ظهرت منذ القرن الثالث الهجري و نجد الصوفية في هذه المرحلة قد عنوا بالكلام في دقائق أحوال النفس و السلوك و غلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم و عملهم فصار التصوف على أيديهم علما للأخلاق، كما نشأ من ذلك كله علم الصوفية حيث يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع و المنهج و الغاية، و له لغته الإصلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم .و في هذه المرحلة نجد بعض المشايخ يجمعون حولهم المريدين من أجل ترتيبهم فتكونت لأول مرة الطرق

---

[1]- الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، **صفحات من حياته**، دار الهلال القاهرة، ص 198.

[2]- الحسن البصري و كنيته أبو سعيد كان أبوه غريانيا من مسيان و سباه المسلمون عند فتح العراق و سكن المدينة المنورة و قد أعتقهم من كان عندهم من الأنصار و ولد ابنه الحسن فيها عام 522 و غادر إلى البصرة و أقام إلى أن توفي عام 110 هـ، لمزيد من التفاصيل أنظر عثمان السعيد، مرجع سابق، ص33.

[3]- هي أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك و توفيت سنة 185هـ و دفنت بالبصرة أطلق عليها أنها شاعرة المحبة الإلهية عند الصوفية و كانت تمثل مذهب الزهد مع الحب و كانت في حياتها زاهدة عابدة، لمزيد من التفاصيل أنظر عثمان السعيد، التصوف .

الصوفية في الإسلام و التي كانت آنذاك بمثابة المدارس التي يلتقي السالكون فيها آداب التصوف علما و عملا.

2-3/المرحلة الثالثة:

كانت في القرن الخامس الهجري حيث كان الإمام الغزالي الذي لم يقبل من التصوف إلا ما كان متماشيا تماما مع الكتاب و السنة حيث انتهى الأمر إلى إرساء قواعد التصوف المعتدل المساير للشريعة، في هذه المرحلة التي كان يمثلها الإمام الغزالي أصبح التصوف طريقا ذوقيا و منهاجا روحيا يوصل إلى المعرفة و يستعان به على تحقيق السعادة في الدارين حيث أصبح التصوف هنا مخالفا لعلم الكلام بعد أن كان مخالفا لعلم الفقه[1].

و قد كان الإمام الغزالي يرى في منهجه إلى الزهد و التقشف و تهذيب النفس و أخلاقها و قد عمق الكلام في المعرفة الصوفية على نحو لم يسبق إليه و حمل على مذاهب الفلاسفة و المعتزلة و الباطنية و انتهى به الأمر إلى إرساء قواعد نوع من التصوف المعتدل الذي يساير مذهب أهل السنة و الجماعة و يخالف تصوف الحلاج و البسطامي في الطابع.

2-4/ المرحلة الرابعة:

و كانت في القرن السادس الهجري حيث أخذ نفوذ التصوف السني في العالم الإسلامي يزداد بتأثر عظيم بشخصية الإمام الغزالي حيث ظهر صوفية كبار كونوا لأنفسهم رتبا لتربية المريدين منهم الإمام الرفاعي المتوفى سنة 1174م، و الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 1165م.

2-5/ المرحلة الخامسة:

و كانت في القرن السابع الهجري حيث ظهر أئمة آخرون ساروا على نفس الطريقة وكان من أبرزهم أبو الحسن الشاذلي سنة 1258م، و تلميذه أبو العباس المرسي سنة 1287م ، و تلميذه ابن عطاء الله السكندري سنة 1309م [2]، و هم أركان المدرسة الشاذلية في التصوف، ويعتبر تصوفهم امتداد لتصوف الغزالي السني، و هي مرحلة ظهر فيها التطور الصوفي و التوسع في المجال الروحي[3].

---

[1]– أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف،القاهرة 1979، ص 18-19.

[2] – –نفسه ، 19-20.

[3]– أبو الوفا التفتازاني، المرجع السابق، ص 20.

أهم ما ميز هذه المرحلة هو وصول التصوف للمرة الأولى لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء قادمة من بلاد الأندلس منذ طلائع القرن الرابع الهجري، و منه انتقلت إلى المغرب، فكثرت زوايا التصوف ابتداء من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، انتعاشا كبيرا[1]، حيث اضطلعت بدور سياسي رائد إذ أنها كانت أداة لتعويض السلطة المركزية في البلاد و وسيلة لمحاربة الاستعمار.

و قد كانت الصحراء لها السهم الأوفر في الإقبال على مشايخ التصوف و زواياهم مبكرا حتى عرفت البلاد بداية من القرن التاسع الهجري بأرض الأولياء، و ترسخت الطرق الصوفية في المنطقة و أصبحت تزحف حاملة معها تعاليم الإسلام إلى المناطق المجاورة من إفريقيا.

3- أصول التصوف في شمال إفريقيا :

في شمال إفريقيا أيضا يمكن إرجاع التصوف إلى مرحلتين الأولى كانت فترة التصوف النخبوي من أمثال ما يبرز خلالها أبو مدين شعيب[2] ومحي الدين بن العربي [3] و أبو الحسن الشاذلي [4] وذلك خلال القرن السادس هجري أما المرحلة الثانية ،فكانت مرحلة الانتقال إلى التنظيم الجماعي للتصوف أو الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي الطرقي وقد وقع ذلك في القرن التاسع هجري في ظرفيات تاريخية خاصة [5].

وقد كانت هذه النخبة من المتصوفين تكون "أساتذة ممتازين في العلوم الصوفية " نشروا التصوف في المدن أولا وشيئا فشيئا (ابتدءا من القرن السابع الهجري) نقل تلاميذهم التصوف لأهل الريف العامة ساعدوا مرات كثيرة على نشر الإسلام وإعادة نشره في الأرياف ،وبهذا مهدوا

---

[1]- هو أبو عبد الله محمد بن سليمان السملالي الجازولي الشاذلي، (817-870هـ)، صاحب كتاب دلائل الخيرات و هو مجموعة صلوات على النبي محمد صلى الله عليه و سلم، و منشئ الطريقة الجازولية الشاذلية كان إلى جانب ثقافته الواسعة بالطرق الصوفية فقيها متمكنا يحفظ عن ظهر قلب مدونة و غيرها من أمهات الكتب قيل أنه رب أكثر من ثلاثة آلاف تلميذ،أنظر عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الصوفية، ص .132

[2]- أبو مدين شعيب: أصله من اشبيلية ،ولد سنة 1146م غادرها إلى طنجة ثم إلى سبتة ثم مراكش ثم فاس ،اخذ التصوف عن عبد القادر الجيلاني ببغداد وعند رجوعه استقر ببجاية . توفي سنة 1197م وهو يعتبر قطب التصوف في المغرب.

[3]- محي الدين العربي : ولد سنة 561 هجري -1165م بمرسية الأندلس في عصر الموحدين وقد اشتهر بفلسفة وحدة الوجود أي انعدام الفصل بين الإله والعالم .

[4]- ابو الحسن الشاذلي : أصله من المغرب ارتحل إلى الشرق حيث قام بفريضة الحج وهناك اطلع على المذهب الصوفي واعتنقه ن عند رجوعه التقى بالشيخ محمد بن مشيش لبذي أشار إليه التوجه إلى تونس حيث رابط بمغارة جبل الحلاز اين توجد زاويته .

[5]- لطيفة الأخضر الإسلام الطرقي، ص18.

السبيل للحركة الصوفية الكبيرة الشعبية التي ستنتشر ابتدءا من القرن الخامس عشر مع الطرق الدينية من المغرب إلى الشرق[1] .

فقد عرف المغرب العربي ظاهرة التصوف ،شانه في ذلك شان المشرق ،نظرا للاحتكاك القائم بينهما عن طريق الحجيج وطلاب العلم ،فالتصوف المغربي بدا هو الآخر في شكل زهد وورع ثم ما لبث أن تطور إلى تصوف نظري فلسفي مثله في العهد المرابطين ابن العريف[2] صاحب كتاب محاسن المجالس ومن بعده محمد عبد الحق بن بن سبعين[3] في عهد الموحدين [4] .

هنا سيتم التعريف بالتصوف و الطرق الصوفية و نشأته في الاسلام و كيف تم انتقاله إلى المغرب العربي و ابرز المؤسسات التي تمثل فيها .

---

[1]- الفريد بيل ، ترجمة عبد الحمان بدوي ، الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم ،دار الغرب الاسلامي ، ط3 ،بيروت ، 1987،ص 393.

- ابن العريف : أبو العباس احمد بن محمد بن موسى بن عطا الله الصنهاجي ولد سنة 481هجري بالمريا ،تعلم بمسقط رأسه وبقرطبة بسرقسطة وتولى الحسبة بالفسيفسا، ذاع صيته في الزهد والعبادة ترك أتباعه فاستدعاه علي بن يوسف بن تاشفين الى مراكش بسعي من الفقهاء انكروا مذهبه توفي بها سنة 536 هجري له كتاب "محاسن المجالس " طرح فيه أصول طريقة صوفية جديدة أثرت في الشاذلية وتتلخص في الزهد في كل شيء ما عدا الله وقد كان لدعوته اثر في ثورة المريدين الموحدين على المرابطين بقيادة ابن قسي ،انظر محمد بن عبد بن ابي بكر القضاعي.

[3]- ابن سبعين : أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم محمد بن سبعين ولد بمرسية سنة 614هجري درس علوم القران والحديث ،والفلسفة تلقى الصوفية على يد أبي إسحاق بن دهاق ،انتقل الى سبتة ترأس مجموعة من المريدين ،عرفوا فيما بعد بالسبعية ،سكن بيجاية ثم رحل الى الحج فاستقر بمكة حيث توفي سنة 668هجري من كتبه يد العارف وعقيدة المحقق المعرب الكاسف ،وطريق السالك المنبتل العاكف وكتاب الدرج والدرة المصبة والخافية الشمسية ورسائل متنوعة .راجع محمد شاكر الكلبي :فوات الوغيات والذيل عليها ،تحقيق إحسان عباس ج2، دار الثقافة بيروت 1974م ص235-253.

[4]- رسالة التلمساني ، الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ جامعة الجزائر ، السنة 1997/1998.ص 28.

إنتشار الطرق الصوفية في المغرب العربي :

ظهور التصوف في المغرب العربي كان مصدره المشرق ،وترجع بوادره الأولى إلى القرون الوسطى ،وقد فتح الباب الواسع بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر لانتشار ظاهرة الأولياء الصالحين في الإسلام السني، خاصة وان الفقهاء للمذهب المالكي تميزوا بالتسامح والتعاطي على هذا الصعيد،وعند هذا التقاطع التاريخي خرج التصوف من كونه مجرد تجربة ليصبح فيما بعد ظاهرة اجتماعية من خلال الطرق والزوايا .

إن حال التصوف في المشرق يختلف عما كان عليه بالمغرب العربي فالتصوف في المغرب العربي لم يشهد نفس الصراع الذي عاشه في المشرق إذ أن المغرب العربي عرف خلال القرن السابع والثامن للهجرة متصوفين متمسكين بالكتاب والسنة ومبتعدين عن التصوف الفلسفي الذي أسسه ابن مسرة الافلسي (توفي 991م) وتزعمه ابن العريف (توفي1141م) عصر المرابطين ،وابن عربي (توفي 1240م)عصر الموحدين ،فتعايشت الحياة الروحية مع الحياة العقلية في تكامل ،والعلوم الشرعية مع علوم الحقيقة في تكامل ،والعلوم الشرعية مع علوم الحقيقة في تواصل وعلوم الظاهر مع علوم الباطن في توافق ،واشتغل علماء المغرب بعلوم الحديث والأصول والعقل خاصة بعد سقوط الموحدين ،وقد يعود هذا إلى رسوخ الروح الدينية الإسلامية في أخلاقيات المجتمع المغاربي .و لعل أبرز الطرق الصوفية التي كان لها تأثير كبير و صدى واسع في المجتمعات المغاربية في الفترة الحديثة الطريقة التجانية و القادرية .

1- الطريقة التجانية و إنتشارها في المغرب العربي :

أسس هذه الطريقة الشيخ أبو العباس بن أحمد بن محمد المختار التيجاني، الذي ولد في قرية عين ماضي في جنوب الجزائر في عام 1737 [1]، حيث شعر احمد التيجاني بالميل نحو الحياة الصوفية و هو في الحادية و العشرين ، و في عام 1757م سافر إلى فاس للبحث عن شيوخ الصوفية في هذا المركز الديني ، و هناك درس أسس الطرق الصوفية ، و انضم إلى ثلاثة منها قبل أن يعود إلى جنوب الجزائر و هي الطريقة القادرية والناصرية و طريقة أبن الحبيب بن محمد بن الحسن الوانجلي .

ذهب الشيخ احمد إلى قرية الأبيض على مشارف الصحراء حيث استقر في زاوية سيدي عبد القادر بن محمد و مكث بها خمس سنوات استغل بعضها منها في التدريس . و في عام 1773م بدأ الشيخ التيجاني رحلة الحج التي أكدت متابعته للطرق الصوفية و توقف في مدينة أزواوي بالجزائر أثناء الذهاب إلى الحج ، و انظم إلى الطريقة الخلواتية و درس على يد شيخها و يدعى محمد بن عبد الرحمن ، ثم قضى عاما في تونس حيث درس كتاب ابن عطا الله ، كتاب الحكم ، و حقق نجاحا في تدريسه لدرجة أن الباي علي 1757م-1782م طلب منه البقاء في تونس للتدريس في مسجد الزيتونة و إغراءه بالمال و المسكن الفاخر لكن التيجاني رفض ، و قرر مواصلة رحلة الحج ، و كان قد سمع عن الشيخ محمد الخضري رئيس الطريقة الخلواتية في القاهر ، و كانت هذه الطريقة قد انتشرت على أساس احترام زعيمها و صرامة تطبيق المبادئ و تدريب الأتباع .

حيث كانت هذه الطريقة تتسم بالانقسام المستمر ، كما كانت واحدة من الطرق الرئيسية التي اعتمدت المدارس الصوفية ،ورغم أن أصلها غامض إلا أنها نجد أصولها في الطريقة التركية و الفرنسية التي خلفها المتصوفة بعد إبراهيم الزاهد ومحمد نور الخلواتي ، و كانت أول زاوية للخلواتية قد

[1]- اشتقت التيجانية هذا الاسم من اسم قبيلة بربرية جزائرية كانت تقطن بالقرب من تلمسان و تسمى تيجان ، و أجداد مؤسس الطريقة لم يكونا تيجانيين ، لكن عندما حاول أحد الأجداد و يدعى محمد الاستقرار في واحة عين ماضي بولاية الأغواط و التي كان يسكنها التجانيون ، و تزوج من أحد بنات هذه القبيلة ، فحصل على لقب التيجاني ، و كانت مدينة عين ماضي التي ولد فيها أحمد التيجاني قد تنسب في القرن الحادي عشر ميلادي ، و بناها ماضي بن يعقوب بالقرب من أحد العيون فصارت تعرف باسم عين ماضي و من هذا الاسم عرفت المدينة .كما أن البدو كان يستخدمون هذه المدينة لحفظ محاصيلهم في مخازن شيدت خصيصا لهذا الغرض و كان أصحابها يتركون جزء من المحصول كنوع من الإيجار و في هذه المدينة ولد أحمد التيجاني محمد المختار بن أحمد بن محمد بن سالم و كان والده عالما عاش و درس في عين ماضي ، و كانت والدته تنتمي إلى التيجانيين الأصليين في عين ماضي ، توفي والدا أحمد التيجاني و هو في سن السادسة عشرة من عمره أثناء وباء الطاعون 1752م ، و اشترى أحمد التيجاني امرأتين من الرقيق و تزوجهما و هما مبروكة التي أنجبت ابنه الأكبر محمد الكبير الذي قتل عام 1837في ثورة ضد السلطات التركية في الجزائر و أنجب من الزوجة الثانية مباركة ابنه الأصغر يدعى محمد الحبيب و الذي عرف باسم محمد الصغير و الذي صار رئيسا للطريقة التيجانية من 1844 حتى عام 1853م . أنظر أحمد العياشي ، كشف الحجاب ، ص 11.

تأسست في مصر على يد ابر هيم جولشني ذو الأصل التركي ، و في القرن الثاني عشر ظهر بين المصريين حركة إحياء للطريقة و امتدت إلى الحجاز و المغرب [1] .

ما إن وصل إلى هناك حتى بدأ في البحث عنه، و التقى به و تعلم على يده الكثير من مبادئ الطريقة ، وواصل رحلة الجج حيث وصل إلى مكة في يناير 1774م ، و هناك اتصل بشيخ صوفي هندي احمد بن عبد الله من خلال الخادم لأن الشيخ لا يقابل أحدا إلا عن طريق الخادم .

فبعد شهرين من هذه اللقاءات مات الشيخ احمد بن عبد الله و يقال أن احمد التيجاني قد ورث عنه كل تعاليم الصوفية [2] . و في طريق العودة إلى بلاده توقف احمد التيجاني في القاهرة حيث فوضه الشيخ محمد الخضري في نشر تعاليم الطريقة الخلواتية في شمال إفريقيا ، واتجه أحمد التيجاني بعد عودته إلى فاس بالمغرب بدلا من مدينة عين ماضي ، و بعد أن زار ضريح مولاي إدريس في عام 1777م، اتجه إلى تلمسان في الجزائر ، و استقر بها حتى 1782 م، ثم اتجه إلى الصحراء مرة ثانية . و يقول محمد بن قاسم الزياني " ..أن الشيخ احمد التيجاني اشتغل في تزييف العملة في تلمسان و أن الباي العثماني في الجزائر عاقبه بالحبس ثم نفاه إلى تلمسان ، و طلب منه عدم الإقامة إطلاقا في أي منطقة تابعة له .."[3] .

حيث اتجه الشيخ أحمد بعد ذلك إلى سيدي أبي سمغون و هي واحة جزائرية تبعد خمسة و سبعين ميلا جنوب جريفل ، و استمر بها حتى هاجر إلى فاس ، و في أبي سمغون أعلن الشيخ التيجاني انه رأى الرسول الله صلى الله عليه و سلم في المنام و إنه طلب منه القيام بواجب الوعظ و الإرشاد ، و في هذه السنة أقر ورد الطريقة و تعتبر سنة 1782م، بداية الدعوة لنشر الطريقة التيجانية حيث انتقل إلى فاس ووصلها في 18 سبتمبر 1789م ، و تأكد سبب انتقال الشيخ أحمد التيجاني من الجزائر إلى فاس بسبب اضطهاد الأتراك له حيث يقول احمد بن خالد أناصري في كتابه الاستقصاء أن الشيخ أرسل عند وصوله إلى فاس رسولا إلى مولاي سليمان يخبره بأنه هاجر بسبب خلافه مع الأتراك و ظلمهم، لما اجتمع معه السلطان ورأى سمته و مشاركته في العلوم اقبل عليه و أعطاه دار معتبرة من دوره ، ورتب له ما يكفيه و اقبل عليه الخلق و اشتهر أمره بفاس و المغرب [4] .

---

[1]- من بنى رانجل من جبال الزبيب و قد توفي سنة 1185ه : أنظر جوهر المعاني و بلوغ الأماني ، ج 1، 4 .

[2]- Abu Nasr Gamil Tijaniyya a Sufi order in the modern world, university press, london 1965 , p 19

[3]- محمد بن قاسم الزباني ، الترجمانة الكبرى ، ص 436.

[4]- بن يوسف تلمساني ، الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر ،جامعة الجزائر ، السنة الجامعية 1997-1998، ص 63.

ظل أحمد التيجاني في فاس حتى وافته المنية في عام 1815م، و حين استقبله مولاي سليمان ، خصص له منزلا ، و قام الشيخ ببناء زاوية له في حومة الدروس في عام 1800 م، و عامل مولاي سليمان الشيخ التيجاني بالحسنى و عينه عضوا في مجلس العلماء ، و يقول المؤرخ الفرنسي هنري ت".. أن السلطان دعم الشيخ أحمد لتيجاني لكي يستخدمه في الوقوف في وجه الطرق الصوفية القديمة..."[1] .

قبل وفاة التيجاني عين سيدي علي بن عيسى التماسيني المتوفى في 1844م، و نص احمد التيجاني على قيادة على قيادة الطريقة بعده يجب أن تكون في أيدي اكبر الأبناء الذكور من عائلته و من عائلة سيدي علي بن عيسى بالتناوب ، لكن هذا التقليد لم يتبع بعد وفاة التيجاني ، و حدث الخلاف بين أتباع لشيخ أحمد التيجاني و أتباع سيد علي، و بعد وفاة الشيخ أحمد التيجاني عاد أبناؤه إلى فاس لنقل رفات والدهم إلى عين ماضي ، لكن رؤساء الزوايا تدخلوا لإبقاء الجثة في مكانها رغم بقاء الجثة في فاس ، إلا أن زعامة الطريقة انتقلت إلى الجزائر و ظهرت فروع جديدة للطريقة سواء في السودان الغربي بقيادة عمر تال ، كمال ظهرت حركات تيجانية أخرى مثل الطريقة الحمالية[2] .

فظهرت مبادئ الطريقة التيجانية من خلال مؤلفات بعض أتباع الطريقة و على رأسهم علي حرازيم بن العربي في كتابه جواهر المعاني و بلوغ الأماني في بعض سيدي أبي العباس التيجاني و كان المؤلف قد قابل الشيخ أحمد التيجاني لأول مرة في مدينة وجدة في مراكش ، و رافقه إلى فاس و دخل الطريقة الخلواتي ، و حاول علي حرازيم في جواهر المعاني أن يؤرخ لحياة أحمد التيجاني لأنه أملى معظم أجزاء الكتاب عليه في حياته و ما أن انتهى علي حرازيم من تأليف الكتاب حتى قرأه على الشيخ أحمد التيجاني فوافق عليه في 3 يناير 1802م[3].

أما الكتاب الآخر عن حياة الشيخ أحمد التيجاني قام بتأليفه محمد بن المشتري المتوفي 1810 م و يسمى كتاب الجامع العلوم الفائدة من بحار الكتاب المكتوم وكان هذا المؤلف قد جاء من مدينة تاكارت في الجزائر و قابل الشيخ التيجاني في تلمسان بعد عودته من رحلة الحج ،و انضم

---

[1]- نفسه ص 65.

[2] - نفسه ، ص 92.

[3]- علي حرازيم بن العربي ، جواهر المعاني و بلوغ الأماني ، ج 2 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ، ص 282 و يعتبر كتاب جواهر المعاني اهم كتب الطريقة التيجانية حتى أنهم يزعمون أن الرسول الله عليه و سلم قال فيه ، كتابي هذا و أنا ألفته ، و قد شرع على حرزام في جمعة فياول شعبان 1213ه و انتهى منه في أواسط ذي القعدة 1214 ، و بعد ذلك قرأه على حرازم على شيخه أحمد التيجاني فوافق عليه . أنظر محمد العربي السائح الشرقي ، العمري التيجاني بغية لمستفيد بشرح منية المريد ن ط1، القاهرة 1959 ، ص 183.

إلى الطريقة الخلواتية ، و معظم ما يحتويه من معلومات لا يزيد عما وصفه علي حرازيم بن العربي .و رغم أن الكتاب لم ينشر إلا عددا كبيرا من مخطوطاته قد نسخت و لا تزال موجودة في أيدي أصحاب الطريقة التيجانية في شمال افريقيا [1].

فلعل السر في انتشار هذه الطريقة بشكل سريع إنما يعود إلى أن التيجاني قد عاش في عصر تفشي فيه الجهل و ابتعد الناس كثيرا عن المنهج الإسلامي الصحيح بالإضافة إلى قلة العلماء المخلصين الذين يمكنهم إزالة ما يعلق في نفوس الناس من هذه الأمور المخالفة للشريعة ، و فوق كل هذا كان لتشجيع الأمير سليمان أمير المغرب أثره في حماية الطريقة و انتشار أورادها على نطاق واسع [2].

و للطريقة التيجانية سلسلة واحدة تعود إلى المؤسس و لذا فليس من حق أحد الأتباع أعطاء العهد لأي واحد بعد ذلك . و ركزت الطريقة على الذكر الهادئ حتى في الجماعات العامة ،و أنكرت زيارة القبور والأماكن المقدسة ،كما انه عين نوابا عنه في كل المناطق التي انتشرت فيها الطريقة [3] ،كما انتشرت التيجانية في مصر و سودان وادي النيل من خلال رحلات الحج و من خلال سلالة جماعات الفولبي و التوكولور الذي نشروها في السودان .

1-1/ الطريقة التجانية في الجزائر :

-[1] Arcin, A : Histoire de la Guinee Francaise , paris 1911, p109.

-[2] أحمد سكيرج ، كشف الحجاب عمن تلاقي مع الشيخ التيجاني من الأصحاب ، ط 3 ، سنة 1381ه ، ص 21 .

-[3] توماس أرنوك ، الدعوة إلى الاسلام ، ب.ت ، ص 367.

يعود انتشار هذه الطريقة إلى مرحلتين أساسيتين . فالمرحلة الأولى في عهد المؤسس و خلفائه المباشرين ، و هي المرحلة التي لعب فيها الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة دورا برزا حيث قضي فيها أربعة و ثلاثين عاما لنشر دعوته سبعة عشر سنة في الجزائر و المتبقي في فاس .

و خلال إعلان طريقته الجديدة في أبي سمغون كما اشرنا إليها سالفا ، ألتف حوله المقدم محمد بن العباس و أحمد بن عبد الرحمان و أبو القاسم بنيحي و محمود بودواية و الشيخ محمد بن المسقم ، و أبو الحسن بوحفص بن عبد الرحمان ...إلخ [1]. فكان هؤلا ء النواة الأولى لأتباع الشيخ احمد التجاني في قرية أبي سمغون ، التي اكتسبت أهمية كبرى ، حيث تعد مهد الطريقة التجانية ، ففيها وقع الفتح للشيخ التجاني و منها إنطلق لينشر تعاليم طريقته الجديدة .

تلقت دعوة التيجانية استجابة كبيرة بعين ماضي ، حيث أخذت جميع القبائل بمنطقة عين ماضي على أخذ ورد الطريقة التيجانية و من بينهم محمد بوحسون المضاوي ، كان مقدما للطريقة في نواحي عين ماضي ، وهو الذي بنى للشيخ التيجاني خلواته بعين ماضي و أبي سمغون ، و الشيخ النوي بن عطاء الله و محمد الهاشمي السرغيني دفين زاوية عين ماضي ، و الشيخ محمد بن سلامة الذي وهب للطريقة أملاكه و هو الأخر دفين بعين ماضي ، أما من أهل الأغواط الذين ساهموا بنشر الطريقة من بينهم سليمان بن سعد و أحمد بن معمر و الأخضر بن محمد بن شيبة ...إلخ.

حيث عرفت منطقة تلمسان انتشار مبكر لطريقة التيجانية ، و ذلك يرجع من خلال إقامة لشيخ أحمد التيجاني بتلمسان ، و من بين أهم شيوخ الطريقة التيجانية بتلمسان الشيخ الطاهر بوطيبة مقدم الزاوية التيجانية ، و محمد المازوني[2] . و أثناء زيارته لمنطقة توات ، إذ التقى بالشيخ محمد بن الفضيل التوتي ، و هو من أوائل أصحابه ، فأجازه في تلقين مبادئ الطريقة التيجانية ،و مقدما لطريقة التيجانية بالجنوب الغربي الجزائري[3] .

و بمناسبة إعلان الشيخ أحمد التيجاني ميلاد الطريقة التيجانية بتلمسان ، إذ تعرف على الشيخ محمد بن المشري ، الذي أخذ منه الورد التيجاني ، أصبح داعيا لطريقة التيجانية .و هناك من

[1]- تلمساني، المرجع السابق ، ص 88.
[2] - تلمساني ،المرجع السابق، ص 89.
[3]- نفسه ، ص 90

يشير الى الحاج علي الذي رافق الشيخ أحمد التيجاني لبضعة أشهر، على انه من كان له الفضل في نشر الطريقة التيجانية بشكل واسع في الجنوب الشرقي ،إذ انه عاد إلى تماسين أسس بها زاوية و اتخذها مكانا يدعوا فيها لمبادئ و أفكار الطريقة التيجانية ، كما وضع ماله في سبيل نشر الطريقة التيجانية ، كما أنه بقي على اتصال بالشيخ أحمد التيجاني من خلال زيارته المتكررة له أثناء إقامته بفاس ، و أثناء وفاة الشخ أحمد التيجاني سنة 1815 م، ورثة الحاج علي الخلافة ، فمنذ ذلك الوقت أصبحت الخلافة تتوارث بين أحفاد الحاج علي و أحفاد الشيخ التيجاني ، كما اتخذت زاوية تماسين و زاوية عين ماضي مقرا لإدارة الطريقة التيجانية [1].

أما المرحلة الثانية و هي فترة أبناء الحاج علي و أبناء الشيخ التيجاني ، أصبح نفوذ الطريقة التيجانية يقتصر في الصحراء و في الجنوب التونسي ،بينما في الجهات الباقية فتميزت بالفتور ، و ذلك نظرا لسياسة الفرنسية التي اتخذتها تجاه الزوايا و شيوخها و الذي سوف نتطرق إليه في موضوع السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية و كذلك لتوسع الاستعمار الفرنسي في شمال، هذا بالإضافة إلى المشاكل و الخلافة الداخلية لطريقة التيجانية ، و خاصة مسألة تولي الخلافة و خاصة بين أبناء الحاج علي و أحفاد الشيخ التيجاني[2].

2-1/ الطريقة التيجانية في تونس :

- [1] Coppolani , Depont, Les Confreries religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, Alge 1897.p 424.
- [2] Rinn ;l : Maraboust et khouan, paris 1984,p 423.

أنظر-. تلمساني ،المرجع السابق، 94.

دخلت هذه الطريقة إلى تونس أيضا من الجزائر و ذلك بصفة متأخرة إذ سبقتها كل الطرق التي ذكرت ، و بسبب هذا هو المتأخر النسبي الذي ظهرت فيه كل الطرق بأكملها ، فولد سيدي احمد بن مختار التيجاني بعين ماضي سنة 1737 م من نسب شريف يعود إلى محمد الملقب بالنفس الزكية أما أمه فهي عائشة بنت أبي عبد الله محمد بن السنوسي التيجاني نسبة إلى قبيلة بني توجين [1] مؤسسها في عين مهدي بالجزائر حوالي سنة 1737م -1738م ، و تعلم عن فقهاء ، فاس بالمغرب الأقصى ، ثم إلى الحج ، فهناك انضم إلى العديد من الطرق ، ثم رجع إلى فاس ، ثم إلى الجزائر أين انزوى للتفكير الصوفي بإحدى واحات الجنوب ، و أخيرا رجع إلى عين مهدي موطنه الأصلي بعد أن سمحت له فترة التأمل من اكتساب القواعد و المبادئ اللازمة لتأسيس طريقة جديدة مختلفة عن الطرق التي عرفها من داخلها بانضمامه السابق لها .

قد استطاعت هذه الطريقة أن تكسب شهرة و ثورة هائلة حيث توغلت نحو أقصى الجنوب و خلقت علاقة مع وسط إفريقيا و سيطرت على جزء من التجارة الصحراوية ، و في حدود سنة 1853م كانت الطريقة تعيش في وحدة كاملة ، و كانت قوتها في تزايد و فروعها تمتد نحو الصحراء ، بإفريقيا الغربية و بالسودان الشرقي ، و كان مقدموها يقودون القوافل ، حيث كانت الطريقة تحمي تجارة هائلة ، وكانت الثروات تنصب على الواحات [2].

هذا ما جعل باي وهران يرمي الحصار على عين مهدي و يفرض عليها جباية هامة و ذلك فيما بين سنتي 1783م – 1778م . كما شهد عن الثراء الكبير الذي كانت عليه الطريقة ، حيث يذكر ليون روش في مذكراته التي دون بها تجربته الإسلامية و تحدث فيها ليون روش عن المساعي التي قام بها لدى شيخ التيجانية بالجزائر للحصول على فتوى تشرع لدى المسلمين قبول الاستعمار الفرنسي ، و ذلك سنة 1841 م ، فيقول و هو في بيت سيدي محمد التيجاني ابن سيدي أحمد التيجاني بعين مهدي وجدت نفسي بمفردي في فناء مربع ، يحيط به صف من الأعمدة المرمرية التي تنتهي بأقواس فوها جدران مزركشة بالفسيفساء و بالخزف الصيني ، و تشق هذه الجدران نوافذ بها سياج مزخرف من خلله كنت أستطيع تمييز حضور نسائي [3] .

---

[1]- علي حرازم بن العربي برادة ، جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، ج1 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ، ص 26 -28.

[2] – -L ieutenant d' A rbaumon ; de l'infanterie coloniale ; la confrèrie tijania situation et role en T unisie (Etude dactylographiée) juillet1941 ; p 12

[3]- أنظر : -Leon Roches , Dix ans à travers l'islam 1834 – 1944 , Paris 1904

أما نشر الطريقة التجانية إلى تونس ، فترجع إلى الشيخ إبراهيم رياحي[1] ، بعدما تلقاها على يد علي حرازيم في تونس ، و أثناء رحلته إلى المغرب الأقصى عام 1804م إلتقى الشيخ أحمد التيجاني في فاس و تأثر به أيما تأثر فأجازه بتلقين الطريقة و نشرها في تونس ، كما انتشرت هذه الطريقة في بدايتها في وسط الطبقة الحاكمة و المثقفين ، و من أهم مناطق انتشارها العاصمة بحوالي ستة زوايا و سوسة بثلاثة و توزر بثلاث قابس بثلاث [2] .

كما تنقسم مرحلة تاريخ انتشار الطريقة التيجانية بتونس إلى مرحلتين : فالمرحلة الأولى قبل تواجد الإدارة الفرنسية و المتمثلة في إبراهيم الرياحي الذي يستمد شرعيته من انتمائه لطريقة التجانية و معرفته للأمور الدينية و تطلعه إلى الفكر الصوفي متميزا بشخصية مستقلة [3] ، و تحقق خلال هذه المرحلة انتشرت زوايا التجانية بمنطقة الشمال و الشرق [4] .

أما المرحلة الثانية في ظل الحماية .و المتمثلة في الشريف المنوبي التيجاني[5] الذي اشتهر بزعمه لنفسه الشرف و الانتماء إلى عائلة الرسول صلى الله عليه و سلم ، كما كان يزعم انه شيخ مسؤول على كامل الطريقة بتونس ، في حين لم يكن لذلك أي أساس من الصحة ، و ما يهمنا أكثر انه اشتهر خاصة بتماديه طوال حياته في استمداد شرعيته من الولاء للإدارة الفرنسية ، و هنا عرفت الطريقة التجانية انتشار أوسع في الجنوب و الغرب ، و لعل هذا راجع إلى التسهيلات نتيجة مواقفها تجاه السياسة الفرنسية[6] .

و حسب إحصائيات سنة 1925 م[7] بلغ عدد زوايا الطريقة التيجانية سوى بأربعة و عشرون زاوية و يمكن أن نفسر سبب قلة عدد زواياه إلى المنافسة التي تلاقيها من قبل الطريقة السنوسية [1] ، أو قد يعود إلى انفتاحها لسياسة الفرنسية ، مما جعلها تفقد مصداقيتها تجاه المجتمع التونسي .

---

[1]- أبرهيم الرياحي : هو أبو اسحاق بن عبد القادر الرياحي بن الفقيه ابراهيم الطرابلسي ، ولد في 1180م ، قدم إ لى تونس و تعلم من أكبر علمائها ثم توجه إلى المغرب أين إلتقى الشيخ التجاني سنة 03/ 1804 م ، و أخذ عنه إجازة لنشر الطريقة الطريق في تونس و أسس أول زاوية لها في تونس.

[2]- تلمساني ، الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر (1782—1900) ، جامعة الجزائر 1998م ، ص 107، 109 .

[3]- رشاد الامام ، سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814 ، منشورات الجامعة تونسية ، 1980 ، ص 56.

[4]- تلمساني ، المرجع السابق ، 108.

[5]- الشريف المنوبي التيجاني ولد حوالي سنة 1890 ببوعرادة بالمراقبة الدنية لمجاز الباب و كان أبوه مقدما لزاوية التجانية صغيرة هناك ، و يعتبر رمزا للجيل الثاني للطريقة التجانية ، و هذا الجيل تميز بالالتزام و الانحياز تجاه السياسة الفرنسية .

[6]- أنظر عمر الرياحي ، تعطير النواحي بترجمة ابراهيم الرياحي ، ج1 ، ط1، مطبعة بكار تونس 1320ه . تلمساني ، المرجع السابق ، 108.

[7]- تلمساني ، المرجع السابق ، ص 107.

3-1/ الطريقة التيجانية في المغرب الأقصى :

كان الشيخ احمد التيجاني قد استقر في فاس عام 1789 م، و لولا مساعدة السلطان مولاي سليمان لما تمكن من الإقامة في هدوء ، و لما استطاع ممارسة عمله بأمان بسبب عداوة الدوائر المثقفة له و كانت هذه المساعدة تعني أن الملكية قد وضعت الطريقة التيجانية تحت حمايتها [2]، و بالرغم من كراهية أحمد التيجاني أثناء إقامته في فاس ، والارتباط مع الحكومة إلا أنه وجد نفسه منساقا على هذا الاندماج مع الطبقة الحاكمة بسبب ضغوط و الظروف .

و على امتداد القرن التاسع عشر اعتنق الطريقة التيجانية عدد كبير من موظفي الحكومة المراكشية ، و صارت تستهوي كل الرجال الطبقة العليا و ذوي النفوذ بينما انخرط رجال الطبقة المتعلمة في سلك الطريقة الدرقاوية و حتى بداية إعلان الحماية على مراكش في عام 1912 م،كانت الطريقة التيجانية أكثر ارتباطا مع الأسرة الحاكمة و نافست كل من الطريقتين الدرقاوية و الكتانية ، كما لعبت دورا تحريضيا ضد الاستعمار الفرنسي[3].

فكانت كل مدينة مراكشية تتضمن زاوية أو أكثر للطريقة التيجانية و توسعت بشكل أكثر في الجنوب خصوصا في إقليم سوس الذي يقطنه البربر ، وذلك على أيدي الشيخ مشهور هو محمد بن احمد الكنسوس المتوفي 1877م ،و الذي تعرف على أحمد التيجاني أثناء دراسته في فاس لكنه لم ينضم إلى الطريقة إلا في عام 1822م، أي بعد ثمان سنوات من وفاة المؤسس ، و قد خدم في شبابه في البلاط السلطاني ،و بعد وفاة السلطان ذهب إلى مراكش حيث استقر و درس الطريقة التيجانية، و عن طريقه انتشرت الطريقة في إقليم السوس من خلال عدد من أصدقائه .و في عام 1854م ،أسس أول زاوية له في مدين ، و يرجع إليه الفضل في استقرار الأسرة التيجانية في هذه الزاوية عندما يزورون مراكش .[4]

في أواخر القرن التاسع عشر صارت مدينة مراكش مقرا هاما للتجانية ، بل و صار لها أثنى عشرة زاوية ،و تولى قيادة الطريقة جنوب مراكش احد شيوخ البربر و يدعى محدم لقطيفي الذي انضم إلى

---

[1]- الطريقة السنوسية نسبة إلى مؤسسها محمد بن علي السنوسية الذي ولد سنة 1787 بمستغانم من مقاطعة وهران ، انتمى إلى عدة طرق منها القادرية ثم التيجانية ثم توجه إلى الحجاز فقام بالحج ثم أسس سنة 1837 أول زاوية له قرب مكة و يمثل هذا دخول السنوسية إلى التاريخ ، و أما جوهر تاريخها فيبدأ مع استقرار سيدي محمد السنوسي بليبيا حيث أسس زاوية الجغبوب

[2]- Coppolani , Depont, Les Confreries religieuses musulmanes, Adolphe Jourdan, Alge 1897.p 439.

[3]- Ibid, p 439.

[4]- Abu Naser Gamil ,Op.CIT, p 96.

الطريقة في عام 1892م.و كان لجهوده و حماسه من أجل نشر مبادئ الطريقة التيجانية أثره في انضمام عدد كبير من المغاربة خصوصا في إقليم السوس .

إذ انتشرت الطريقة في إقليم السوس و منه إلى جنوب الصحراء عن طريق قبيلة عدوة على الموريتانية التي يحمل أبناؤها مبادئ التيجانية إلى غرب التيجانية إلى غرب القارة الإفريقية ، و استطاع أحد أبناء القبيلة و يدعى محمد الحافظ بن المختار أن يتصل بفاس أثناء رحلة الحج إلى مكة و أنضم إلى الطريقة ، و أثناء تواجده في المدينة فاس عام 1789م ،تمكن من مقابلة احمد التيجاني و صار نائبا عنه و يحق له اختيار مقدمين و نواب لنشر أوراد الطريقة في ذلك الجزء من غرب إفريقيا [1] .

قبل ظهور التيجانية في موريتانيا كانت الطريقة الفاضلية و هي أحد فروع الطرقة القادرية تحكتر المجال الصوفي و لكن بعد انضمام قبيلة عدوه على إلى التيجانية حدث تغير كبير ، و تحول الناس إلى مبادئ التيجانية و صارت أقوى و أوسع الطرق انتشارا في موريتانيا بفضل جهود أبناء هذه القبيلة الذين ساهموا أيضا في نقل الكثير من أفكارها إلى إفريقيا حتى جاءك الشيخ الكبير عمر الفوتي التكروري و صار قطبا من أبرز أقطابها في غرب إفريقيا ، فساعدت جهوده على نشر أورادها بل و أسس دولة كبرى في غرب إفريقيا و صارت التيجانية من أكثر الطرق منافسة القادرية.

2- الطريقة القادرية و إنتشارها في المغرب العربي :

تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ أبو صالح عبد القادر الجيلاني، وهو ابن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .ولد في عام 470هـ/1077م في قصبة من بلاد جيلان في عصر المستنصر بالله العباسي بن المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبد الله العباس.ويقع إقليم جيلان بين

---

[1] - Coppolani et Depont , OP. CIT, p 439.

بحر قزوين شمالا وأذربيجان جنوبا.دخل بغداد وعمره ثمانية عشر سنة عام 1095م ،و هي سنة التي خرج فيها أبو حامد الغزالي من بغداد[1]، و درس مذهب الإمام أحمد بن حنبل لكنه رفض الانتظام في المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي بعد وفاة أخيه أبي حامد الغزالي ، و يقال انه لم يعتنق أي فكرة صوفي حتى حضر إلى مدرسة أبي الخير حمد الدباسي المتوفي 1131م، و قضي عبد القادر خمسا و عشرين عاما يتجول في صحاري العراق ، و في عم 1127م عندما كان قد جاوز الخمسين عاما صار فجأة من أشهر العلماء في بغداد على الطريقة الحنبلية، و كان يلبس رداء اللماء و ليس المتصوفة ثم بنى مدرسة لنفسه عام 1135م .

لقد أثنى عليه عدد من العلماء المسلمين نذكر منهم الشيخ العز بن عبد السلام حيث قال عنه: "بلغت إمامته القطع وكان عالما عابدا متبعا أتباعا لا شائبة للهوى فيه ومن أجل ذلك حازت طريقته القبول وقدره المفكرون قاطبة "كما أخذت طريقته في الانتشار منذ القرن الخامس هجري في كل العالم الإسلامي ولعل أعظم الجهات التي انتشرت فيها هي إفريقيا وبخاصة في شمالها وغربها وكانت اظهر ما تكون في المغرب الوسط[2].

وكانت للشيخ صفات تندر أن توجد لدى غيره فقد حرص على تخطي جميع العقبات في سبيل تذليل النفس وعدم وقوعها في الخطأ حيث وهب حياته كلها لله عز وجل وفي ذلك يقول الشيخ:"قاسيت الأهوال في بدايتي فما تركت هولا إلا ركبته وكان لباسي جبة صوف وأمشي حافيا، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدات حتى رقني من الله الحال ، وكان يرى أنه على المتصوف أن يأخذ من خصال الأنبياء كصبر سيدنا أيوب عليه السلام وأن يزهد في الدنيا ، ولا يطلب من هذه الدنيا سوى الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى، وتعريف التصوف الذي كان يطلبه عبدا لقادر الجيلاني هو" الصفاء من أدران النفس والهوى والصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق"وكان هدفه هو تخليص التصوف من المدعين ويلزم أتباعه بالآداب الشرعية في حياتهم اليومية، وأن كل حقيقة لا تشهد لها

[1]- بن الأثير، البداية والنهاية،ج12،ص149

[2] - عبد الحليم محمد:عقيدة الإكبار، القاهرة 1992، ص25 .

الشريعة فهي زندقة وأن المتصوف لا ينبغي له أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله عليه وكان يرى الصواب في التصوف كطريق للعبادة أن يلتزم المتصوف بالكتاب والسنة التزاما حرفيا خاصة في الجانب المعرفي للتصوف أو جانبه الكلامي.

2-1/ الطريقة القادرية في المغرب الأقصى :

كانت الطريقة القادرية أول طريقة منظمة دخلت مراكش من خلال العالم المراكشي المشهور أبي مدين الغوث 1198م، و الذي قابل مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد بعد أداء كل منهما فريضة الحج . و كان أبي مدين أصلا من مدينة سفيل لكنه عاش فترة في فاس ودرس بها .و ذاعت شهرته في مركاش خلال القرن الثاني عشر [1] .

و قد استقر في بجاية لكن شهرته أثارت حقد و معارضة علماء الموحدين فدعوه إلى العاصمة مراكش ليقدم تقريرا عن نفسه ، و لكنه مات في الطريق عند قرية عباد بالقرب من تلمسان ،و صار أبي مدين من أشهر الصوفيين في القرن الثاني عشر ، و بعد وفاته سافر عدد من أبنائه إلى مصر و صارت لهم شهرة هناك[2].

قد سيطرت الطريقة الصوفية القادرية في مراكش على الحياة الدينية و الاجتماعية طوال القرون التالية لدخولها و هذا ما جعل المنطقة مستعدة لأية أفكار صوفية جديدة ، بل كانت المنطقة بؤرة لقيام طرق جديدة مثل الطريقة التيجانية التي أسسها الشيخ أحمد التيجاني في أواخر القرن الثامن عشر .و أصبح سيدي علي الكنتي قطبا للطريقة القادرية ، و عندما انتقلت قبائل الكونتا في القرن الخامس عشر إلى واحة توات حملوا معهم القادرية ، و في الواحة تطورت الطريقة و في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ،و كان شيوخ الكنتي يزورون برنو و يطبقون الطريقة القادرية [3] .

ففي عام 1550م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط السودان و غربه جاءت هذه الأفكار الجديدة من الشرق عبر مصر و تركيا ، و ظهر الشيخ الزر وق الذي يعتبر من

-1 Rinn ;Louis : Maraboust et khouan, etudes sur I'IsIam en Algerie, Adolphe- Jourdan, Alger 1844,p 216.

-2 Abun Nasr Jamil , op.cit, p 2.

-3 توماس أرونولد ، المرجع السابق ، ص 365.

أهم رجال الطريقة في أغاد يس ، و من هذه المدينة انتقلت أفكار وأراء الشيخ الزر وق إلى الشيخ سيدي مختار الكبير الذي ساعده بدوره على نقل تعاليم الصوفية القادرية إلى جماعات الفولاني في بلاد الهوسا [1] .

2-2/الطريقة القادرية في تونس:

يمكن اعتبار الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية و على الإطلاق تأسيسا ، و أقدمها ظهورا على مستوى العالم الإسلامي و بذلك تكون أيضا من أقدم الطرق ظهور أو أهمها في تونس لما لها من مواقف الذي نتحدث عنه بعمق في فصل مواقف الطرق الصوفية من السياسة الفرنسية ، كما يمكن أن نقول وجدت أرضا خصبا ساعدت على سرعة تغلغلها و انتشارها خاصة خلال الفترة المعاصرة .

[1] - الكونتا إحدى القبائل العربية التي كان لها نفوذ كبير في جنوب الصحراء ، و في الساحل و قد هاجرت هذه الجماعات من منطقة توات ، و في القرن الخامس عشر وصلوا إلأى الحدود تمبكت ، ثم تطورت من نواة عربية إلى قبيلة مغربية دينية كانت الاساس في نشر الطريقة القادرية في غرب افريقيا لأنها كسبت شهرة دينية جعلت الكثيرين ينضمون إليها ، و صارت الوسيط بين القوى المتصارعة من الططوارق و الفولى و الزنوج في نطقة تمكبت أنظر :

Trimingham, j.s : A History of Islam in west Africa , London 1978, p 47

إذ يعود تأسيسها إلى أبو صالح سيدي عبد القادر الذي عرف باسم الجيلاني نسبة إلى المكان الذي ولد فيه [1] .و لد عبد القادر الجيلاني سنة 1078م في الفاتح من شهر رمضان[2] ،انتقل إلى بغداد لما بلغ من الثانية عشر من عمره و التي كانت تعج بكبار الفقهاء ، و القمم العوالي من أهل التصوف ، و يقال أنه لم يعتنق فكر الصوفي إلا بعد التحاقه بمدرسة أبي الخير حمد الدباسي [3]و قضي خمسة و عشرين سنة في صحاري العراق ، و لما بلغ الخمسين من عمره أصبح من أشهر العلماء في بغداد عن الطريقة الحنبلية ، و من كبار الزهاد المتصوفة ، و اشتهر عبد القادر الجيلاني بورعه و تقواه ، و بعد وفاته لقي نهجه قبولا كبيرا لدى أتباعه ، وعرفت طريقته انتشارا كبيرا في القارة الإفريقية خصوصا في شمال إفريقيا [4].

كما انتشرت الطريقة القادرية في تونس عن طريق الحجاج و طلاب العلم ، و أول من نشرها في بلاد المغرب العربي هو الغوث أبومدين شعيب بعد أن التقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة ،و عند رجوعه مر بتونس حيث إلتقى ببعض مشائخها ، فتأثر الكثير منهم حتى صاروا يزروا زاويته في بجاية وذلك خلال القرن الثاني عشر [5] .

على ما يبدو أن الطريقة القادرية بقيت بدون زوايا في تونس حتى القرن الثامن عشر أين برز الشيخ أبو الحسن علي بن عمر الشايب المنزلي[6] الذي علم بدوره محمد الإمام ، و حاولا معا في نشر الطريقة القادرية في المجتمع التونسي ، و يعد محمود باشا من أول أتباع الطريقة القادرية حيث شرع في بناء أول زاوية للطريقة القادرية بمنزل بوزلفة بمعونة ، و انتصب كشيخ عليها محمد الإمام[7].

لم تلبث الطريقة القادرية في تونس حتى انتشرت في معظم التراب التونسي ، حيث أصبح لها نصيب الكبير ب 117.681 من مجموع أتباعها و بمئة و تسعة زاوية من مجموع الزوايا ، و قد

[1]- و هي مدين الجيلان يقال أنها تابعة لإقليم طبرستان بعراق العجم و هناك رأي أخر أنها في بلاد فارس انظر : صلاح مؤيد العقبي ، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر ، تاريخها و نشاطها ، دار البرق ، بيروت 2002 ، ص 143.

[2]- محمد بن بريكة البوزيدي الحسن ، موسوعة الطرق الصوفية (الطريقة القادرية) ،جزء 3 ، دار الحكمة الجزائر 2007 ، ص 11.

[3]- هو الشيخ أبي الخير حمد الدباسي المتوفي في 1131م

[4]- عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ، الطبعة 1 ، القاهرة ، 2004 ، ص 31.

[5]- محمد اليهلي النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، دار النجاح تونس ، 1965 ، ص 321 .

[6]- أبو الحسن علي بن عمر الشايب المنزلي الذي انخرط في الطريقة القادرية عند مروره ببغداد على إثر زيارة للحج ، و أثناء رجوعه إلى تونس علم بدوره الشيخ محمد الإمام .

[7]- بعد وفاة الباي حمودة واصل في بناء الزاوية الأمير حمودة باشا ، إلا إن المؤرخ العجيلي في كتابه الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي يشير [أن محمد الإمام هو من قام ببناء الزاوية .

يرجع هذا النفوذ و توغل إلى سبب بسيط ، يمكن أنها من أقدم الطرق الصوفية في تونس حتى إن كان تأسيس زوايا ها متأخر نسبيا [1] .

من بين أهم الزوايا الطريقة القادرية بتونس زاوية الكاف ، التي أسسها الشيخ سيدي محمد الميزوني إذ دخلها سنة 1834 م و توفي بها سنة 1876م ، و يشع نفوذها على كامل الشمال الغربي من التراب التونسي ، حيث تمارس نفوذها على أولاد ماجر و الفراشيش و أولاد بوغانم و أولاد مومن و الزغالمة ، وصولا إلى سوق الأربعاء ، وطبرقة و بنزرت في الشمال[2] .

كذلك هناك زاوية نفطة و التي أنشئت عام 1843م عن طريق إبراهيم بن أحمد الكبير ، و الذي يعد من المناهضين للتدخل الفرنسي بالجزائر من خلال ارتباطه بمحاولات الأمير عبد القادر في مقاومته ، و على ما يبدوا أنه سخر له الجنود . و بالإضافة إلى ما ذكرناه من زوايا الطريقة القادرية ، فهناك زاوية نهج الديوان ، لتشكل تلك الزوايا الأربعة زاويا أم ، حيث تتقاسم مئة و خمسة زاوية [3].

2-3/ الطريقة القادرية في الجزائر :

إن دخول الطريقة القادرية إلى الجزائر فقد كان على يد الشيخ أبومدين شعيب بن حسين [4]حيث التقى هذا الأخير بالشيخ عبد القادر الجيلاني في عرفات و تتلمذ و درس على يده في مكة ثم عاد إلى الجزائر و استقر في بجاية أين تصدى للتعليم و التدريس و التربية و الوعظ و الإرشاد ، و بث طريقته الصوفية القادرية ، فأقبل عليه طلبة العلم من كل الاصقاع ، لأن بجاية في هذه الفترة كانت عامرة و مزدهرة بالعلوم و المعارف و الثقافة ، و كثر ورود الطلاب عليها من الأفاق البعيد خاصة الأندلس و فاس و مراكش و تلمسان ، و قد تتلمذ على يد الشيخ أبو بومدين شعيب:

---

[1]- التليلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية ،منشورات كلية الآداب بمنوبة ، تونس 1992 ، ص 40.

[2] -Depont (o) et coppolani (s) ,OP. CIT, p 305.

[3]- أنظر الجدول رقم 01.

[4]- ولد بالشبيلية سنة 500هجري عاش 94 سنة بعضها بالاندلس بعضها في فاس و تلمسان و بجاية ، توفي سنة 594 هجري بتلمسان دفن بها .

محمد بن حماد الصنهاجي القلعي ، و عبد الحق الاشبيلي ، الشيخ أبو علي المسيلي الملقب بأبي حامد الصغير و عبد السلام بن مشيش ، أما عن تعاليم الطريقة القادرية فقد ورثها إلى عدد من تلاميذه من أبرزهم : محي الدين بن عربي دفين دمشق ، عبد السلام بن مشيش الذي يعد شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية و منه انتقلت إلى أبي الحسن الشاذلي[1].

كما كان قدوم إبراهيم بن عبد القادر الجيلاني من المشرق إلى المغرب الأقصى من العوامل التي ساعدت على نشر لطريقة القادرية في شرق البلاد غربها بداية كانت في الأوراس مكان استقراره حيث أسس الزاوية القادرية في بلدية المنعة قد وصل حينها عدد الزوايا التي تخلد اسم الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى قرابة 200زاوية [2].

أما في الغرب الجزائري بالضبط بالقرب من مدينة معسكر توجد زاوية القيطنة التي أسسها الشيخ مصطفى بن مختار الغريسي جد الأمير عبد القادر حواي سنة 1785م [3]، حيث درس و تفقه في غريس بضواحي مدينة معسكر و أخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي ثم رجع زار حج و زار بغداد [4] جدد أخذ الطريقة و لبس الخرقة هناك على مقدم الشيخ

[1]- يحي بوعزيز ، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج1، دار الهدى للنشر و الطباعة و التوزيع الجزائر ، 2004 ، ص 440-441.

[2]- صلاح مؤيد العقبي ، ص 146.

[3]- يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 442.

[4]- و من الملاحظ أن بعض الحجاج الجزائريين من العلماء و الصالحين كانوا يتوجهون بعد أداء فريضة الحج إلى بغداد لزيارة ضريح عبد القادر للجيلاني و تقيم الهدايا الثمينة إلى حراس الضريح و كانت تلك الزيارة عندهم جزءا مكملا للحج و الرحلة من لأنه لا يصح أن يعودا إلى بلادهم دون الوقف على ضريح مولى بغداد و التبرك به .

عبد القادر الجيلاني تبرع من ماله الخاص لتوسيع ضريح الشيخ عبد القادر و عندما عاد إلى الجزائر أسس قرية القيطنة و زاويته معهد بوادي الحمام عام 1792م [1]، و تصدى للتعليم التدريس و إعطاء ورد الطريقة ، و وظف في زاويته علماء أجلاء أمثال شيخه عبد القادر المشرفي ، أما عن أبرز تلامذته و مريدي طريقته فقد كان باي وهران المصلح و المجاهد محمد بن عثمان الكبير الذي لم يكن يرد له طلبا و كان أيضا يجمع بين الشريعة و الحقيقة و يبحر في العلوم العربة الفقهية و علم التصوف الحكة و خلل عودة الشيخ مصطفى الغريسي من حجته الرابعة وافته المنية في برقة و دفن بعين غزالة قرب درنة الليبية كان ذلك سنة 1798م[2] و ما يزال قبره معروف حتى اليوم .

فقد تولى أمر الزاوية من بعد الشيخ الغريسي ولده محي الدين الذي كان من شيوخ العلم المشهود لهم الذي تولى أيضا ولده عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين و أصبح الشيخ محي الذين يلقن أوراد الطريقة القادرية للمريدين نشر العلم من الزاوية التي كانت عبارة عن معهد ، بالإضافة إلى تلقين الرد و نشر العلم كانت الزاوية محط الزائرين و الغرباء و الفقراء و قد قيل أن الناس يتهافتون في النفقة عليها ، بعد وفاة الشيخ محي الدين سنة تولى ولده محمد السعيد أمر الزاوية [3].

[1]- يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 442.
[2]- نفسه ، ص 442
[3]- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4 ، بيروت ، ص 514.

البلاد التونسية قبيل وأثناء الحماية الفرنسية:

1–تونس قبيل الحماية

لم تتمكن فرنسا في ول الأمر عند احتلال للجزائر من مد جناحيها على بلاد تونس مادام جثمانها لم يستقر له قرار بالثورات المتوالية بالجزائر ، لكن بعدما عرفت الاستقرار عزم المستعمرون الفرنسيون أن يضيفوا إلى الجزائر تونس ، بعد أن مهدوا لهذه الإضافة بتغرير أمراء البيت الحسيني بالمحافظة على الاستقلال و الخروج من التبعية الدولة العثمانية ، غير أن أطماع الفرنسية اصطدمت بالدول العظمى مثل انجلتر و لا سيما ايطاليا بالخصوص ، إذ دخلت هذه الدول في الموضوع محتجة على السلوك الفرنسي و كل منهم يقول للصادق باي بلسان نائبه ما نصه " يلزمك أن تعاملنا مثلما تعامل به دولة الفرنسيين فإن دولنا أكفاء فإذ توقفت في أمورك على إذن الفرنسيين فلتتوقف على إذن انجلترا مثلا أيضا و لانسلم أن للفرنسيين في هذه المملكة أمرا زائدا على دولنا " [1]، و من خلال هذا يتضح بان انجلترا قبل احتلالها لمصر و قبرص كانت تقف بالمرصاد من السياسة الفرنسية حتى يقع التراضي على قسمة الغنيمة .

و في سنة 1878 تم انعقاد مؤتمر برلين الذي أقر الحرية الكاملة للفرنسيين في العمل بتونس بعد تنازلات متبادلة و تصفية حسابات مادية و إستراتيجية استعمارية بين انجلترا و فرنسا و الإمبراطورية الألمانية ، و في هذا الصياغ فقد تنازلت بريطانيا لفرنسا على تونس شريطة أن تحافظ بريطانيا على جزيرة قبرص و شراء أسهم السويس ، كما أن القراءة السياسية لبريطانيا أنها أدركت بأن تونس سوف تكون غينمة إحدى القوتين الفرنسية أو الايطالية لا محال [2]. و انتهى هذا الصراع الدبلوماسي الذي ظل قائما بين الدول العظمى بتوقيع معاهدة الحماية من باي تونس سنة 1881 [3].

[1]- محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي ، الشركة التونسية للنشر و التوزيع ، 1974م ، 392.

[2]- حباسي شاوش : مجلة الدراسات التاريخية ، جامعة الجزائر ، العدد السادس ، 1992 ، ص 140.

[3]- الطاقم الحكومي للصادي الذين كانوا حاضرين أثناء توقيع معاهدة باردوا فهم محمد باي و محمد البكوش مدير الأمور الخارجية و العربي زروق رئيس المجلس البلدي و العزيز بوعترة وزير المالية و مصطفة بن اسماعيل الوزير الأكبر و محمد خزندار وزير و مستشار و الفريك الياس مصلي المترجم الأول و غسطان القنصل العام لفرنسا و الجنرال بريار و الجنارال موران و امار مترجم عسكري و الطاهر بلحسين أمير اللواء العسة المصونة

في الوقت الذي كانت فيه الدول العظمى تتنازع وتتصالح فيما بينها على تونس ،كانت هذه الأخيرة هي الأخرى عرفت نظام حكم وراثي الذي وصل بالنظام الحكم إلى مرحلة حكم الصادق باي التي تميزت بالضعف و فوضى في تسيير الإداري داخل البلاد و هذا ما سنتطرق له في الجانب الاقتصادي و هذا راجع إلى النفوذ الاجنبي و تواطؤ بعض الوزراء خدمة لدول العظمى و هذا ينطبق على مصطفى خزندار و مصطفى بن اسماعيل ، و إبعاد النخبة التونسية المؤهلة من الشؤون الادراية .و على العموم فإن نظام الحكم التونسي قبيل الحماية تميز بالضعف بشكل عام و التوغل الأجنبي في شتى المجالات ، و قد صادف التكالب الاستعمار على تونس بايا و حاشية نترك وصفها للأستاذ علي محجوبي " في سنة 1881 كان باي تونس محمد الصادق المولود في 22 مارس 1814 و البالغ آنذاك السابعة و الستين ن العمر هو الأمير الثاني عشر في الدولة الحسينية ،و قد خلف أخاه محمد قبل انتصاب الحماية باثنتين و عشرين سنة.

و نظرا لما كان عليه هذا الباي من النص في التكوين و الضعف في الإرادة و الخمول فقد كان قليل الاكتراث بالشؤون العامة للبلاد تاركا السلطة لحاشيته .وكان لوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل شديد التأثير على الباي الذي يضمر لغلامه هذا غراما شديدا و قد استغل مصطفى ضعف الباي فأدار شؤون الايالة حسب مشيئية . و كان أمر هذا الشخص غريبا إذ استطاع الارتقاء بسرعة مذهلة في سلم الوظيفة لعمومية ليصبح في 24 أوت1878 وزير أكبر و هو في سن الخامسة و العشرين بعد أن تقلب في عدة مناصب حيث كان على التوالي مكلف بجراية الباي فقايدا للوطن القبلي ثم وزيرا للداخلية ، و كان عدم التكوين مثل سيده محمد الصادق و غيره مؤهل لتسيير شؤون الدولة و قد استغل مركزه ليزداد ثراء [1] .

[1]- على محجوبي : انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، تعريب عمر بن ضو و علي محجوبي ،دار النشر لسراس تونس ، 1986، ص 9.

كما أن تزايد النفوذ الأوربي المباشر في الساحة لسياسية لتونس ، جعل من الباي استدعاء القنصل الفرنسي ليون روش و ذلك سنة 1860 من أجل استشارته بخصوص الدستور الذي سوف يصدر الباي[1].

و في إطار الضعف الإداري ، فلابد أن نشير إلى الحصار الداخلي و الخارجي الذي فرض على صاحب الإصلاحات خير الدين ، فهذا الأخير أنجز الكثير من المشاريع الإصلاحية الداخلية من اجل إنقاذ البلاد التونسية من الفوضى السياسة وأزمة اقتصادية ، حيث شملت هذه الإصلاحات النظام الضريبي الذي كان مصدر الشكوى كما أهتم بالنظام الفلاحي بتحديد حقوق الخماس و الفلاح و كذلك نظم ميزانية الحكومة من أجل تسديد الديون الذي بدوره يحد من التدخل الأجنبي علي البلاد ، و الاهتمام بالمؤسسة القضائية تعمل على نشر العدالة [2]، ونظرا لهذه الإصلاحات سعت الدول الأوربية إلى فرض حصار على خير الدين باستخدام الدسائس عن طريق بعض كبار الدولة مثل مصطفى بن اسماعيل و الضغط على الباي اللذان سعى جهادين على عرقلة المشاريع الإصلاحية لخير دين ، و من جهة أخرى توظيف المستثمرين الأوربيين باعتبارهما يشكلون قوة تجارية و اقتصادية في البلاد ،هذا ما دفع خيرالدين إلى مغادر تونس غاضبا سنة 1877[3].

كانت المالية التونسية قبيل الحماية تخضع لرقابة أجنبية بعد التوغل الواسع الذي تمتعت به الدول العظمى منذ سنة 1869 م و أمام الضعف الاقتصادي للحكومة الباي على تسديد ديونها الذي زاد من التدخل الأجنبي في الشؤون الملية لغرض حماية مصالح الاستثمار الأوربي ، حيث اقترحت على الباي بتشكيل لجنة مالية دولية تعمل على إحصاء الديون البلاد ، ففي مارس من سنة 1870 تم إعلان على تشكيل لجنة تتكون من خمسة أعضاء [4]، و يقول في هذا الصدد جان غانياج "..كانت قبل كل شيء فترة إفلاس تونس المالي ودخولها تحت الوصاية المالية الأوربية .."[5]. وقد زامن اتصال تونس لأول مرة بالبنوك الأجنبية سنة 1863م نشاط تجاري أو بالأحرى تدخل تجاري وصناعي وامتلاك عقاري واسع من طرف الأوربيين في تونس [6].

---

[1]- حباسي ،المرجع السابق ، ص 141
[2]- العامري : المرجع السابق ، ص 390- 391
[3]- حباسي : المرجع السابق ، ص 141.
[4]- محجوبي : المرجع السابق ، ص 10-11.
[5]- حباسي : المرجع السابق ، ص 142.
[6]- نفسه ،ص 142.

غير أن اللجنة المالية الدولية كانت ترعى لمصالح الأوربية فقط دون النظر للمصالح التونسي ، فظهر ذلك جليا خلال فترة العشر السنوات قبيل الحماية من 1871-1881 م ، حيث بلغ معدل الفائض بالنسبة للاستثمارات الأوربية في سنة 1881 م ب 4.7 بالمئة ، هذا ما يشكل عائق يكلف الخزينة الحكومية التونسية [1] .

أما ما يتعلق النظام الضريبي الذي يعد المورد الأساسي لمدخول الدولة ، إلا أنها لم تكن موزعة بشكل عادل بل فرضت أساسا على الطبقة الفقيرة و الفلاحين البسطاء و في السياق يقول جان قانباج "..ان الضرائب المباشرة تكشف بوضوح عن طبيعة النظام الإقطاعية ذلك إن هذه الضرائب لم تكن تسلط على الرعيا بناء على مواردهم المقدرة أو الحقيقية بل حسب نفوذهم ...فقد كانت القبائل المتمردة معفاة ...و الفقراء يدفعون ضريبة الأغنياء .

و مهما يكن فإن النظام الضريبي عرف نوعين من الضرائب ، فالنوع الأول يشمل الضرائب المباشرة المتمثلة في ضريبة المجبي [2] و هي تفرض على سكان الذكور البالغين باستثناء أصلي بعض المدن تونس قفصة و غيرها، تضاعفت هذه الضريبة على السكان سنة 1863 أي قبل ثورة 1864 م. و هناك أيضا ضريبة العشر التي تمس القطاع الزراعي و بالخصوص زراعة الحبوب المتواجدة في السهول ، و ضريبة المحصولات و هي عادة تفرض على المنتوجات سواء إن كانت زراعية أو تربية مواشي أو صناعة تقليدية ، و على العموم فإن هذا النوع من الضرائب يمثل نصف مداخيل الدولة خلال فترة قبيل الحماية [3].

و بما أن البضائع التونسية المصدرة تخضع لرسوم جمركية ، الأمر الذي أدى إلى استحواذ و السيطرة الأوربية على الحركة الاقتصادية و القضاء على الصناعة المحلية داخل البلاد ، و هذا يرجع إلى الامتيازات الممنوحة للدول العظمى التي لا تسمح للحكومة الفرض على البضائع الأجنبية عند استيرادها أكثر من ثمانية بالمئة ، وبهذا تكون فرنسا و ايطاليا و بريطانيا تسيطر على 92 بالمئة من المبدلات التجارية التونسية [4] .

[1]- محجوبي ،المرجع السابق ، ص 11
[2]- ضريبة المجب فرضها الباي محمد سنة 1856 م
[3]- نفسه ، ص 12.
[4]- حباسي: المرجع السابق، ص 142.

و من خلال ما أشرنا إليه نفهم من أن تزايد الديون على الحكومة و العجز على تسديد ديونها يدفعها إلى اللجوء من حين لأخر إلى الاقتراض بفوائد مفرطة ،و كذلك بتقديم المزيد من الامتيازات لصالح الدول الكبرى أدى تدريجيا إلى السيطرة الفعلية على الحركة التجارية في البلاد التونسية .

و أعطى دوفايري و الوزير المقيم بول كامبون صورة عجينة عن هذا الوضع ، فكتب سنة 1881 : إن مناطق الشمال و الشرق الخصبة و المعرضة للأمطار الشتوية تذكرنا بالمناطق الأكثر حظة بجنوب أوربا و كتب كامبون عام 1882 ، وهو يخلط بين الواقع الاقتصادي للإيالة و الذكريات التاريخية لإفريقي الرومانية إن موارد الايالة هامة و عن خصوبة المناطق الساحلية و الوطن القبلي و الأعراض و الساحل و جزيرة جربة تفسر الشهرة التي تتمتع بها في هذا المجال أفريكا و نوميديا عند الرومان ، و لا يمكن أن تعتم على هذه الشهر على خصوبة وادب مجردة فحسب ، فالساحل و جزيرة جربة يتمتعان بخصوبة لا وجود لنظيرها في أية مقاطعة فرنسية[1]. و على مايبدوا فإن البلاد التونسية قبل الحماية تبدو مزدهرة ،وهذا ينطبق على الأقل على الجهة الشرقية .

و عرف الشمال التونسي بالاهتمام الزراعي و خاصة الحبوب حيث تعتبر من أهم المناطق الزراعية التي تساهم في منتوج البلاد ، و كان الإنتاج الاجمالي للبلاد يتراوح قبيل الحماية بين مليونين و ثلاثة ملايين قنطار و كانت الأراضي الأكثر خصوبة بين أيدي أقلية من مقربي الباي أغلبهم من المماليك و هو ملاكون متغيبون يعيشون في الحاضرة و يؤجرون أراضيهم الشاسعة لمزارعين و حتى خير الدين الذي عرف خلافا البقية المماليك بحساسية للمصلحة العامة لم يشذ عن هذه القاعدة إذا كان يملك بدوره أراضي شاسعة [2] و كان بذلك يخلط بين مصلحة البلاد و مصلحة كبار الملاكين و هذا ما جعله يصدر فيما بين سنتي 1874 و 1875 قانونا للخماسة وضع بمقتضاه نظاما اجتماعيا يعتد الاستغلال الفاحش للفئة الكادحة من السكان و منذ هذا التاريخ أصبح الخماس يعيش تحت رحمة الملاك و اللزام و حتى الوكيل البسيط و لكي لا يخرج من هذه الوضعية المزرية كان بإمكان هؤلاء إيداعه في السجن ما دام يرد لهم الديون المتراكمة عليه و هكذا حكم عل هذا المسكين بحياة البؤس في السجن عل الأرض الذي أفنى فيها أيامه [3].

---

[1]- محجوبي : الرجع السابق ، ص 17.

[2]- منها الهنشير النفضية (و هو مصطلح تونسي يطلق حول الأراضي الزراعية الكبرى المخصصة لزراعة)الذي أقطعه إياه محمد الصادق باي في ماي 1874 و الذي يضم وحده 100ألف هكتار بين تونس و سوسة بالاضافة إلى هنشير السيالة قرب العاصمة .

[3]- محجوبي ، المرجع السابق ، ص 18

أما جهة الساحل فكانت الفلاحة ترتكز فيها أساسا على غراسة الزياتين ، وقد بلغ إنتاج زيت الزيتون في قيادتي سوسة و المنستير سنة 1880 حوالي 140000 هكتولتر ، فيما قدر مجموع إنتاج البلاد ب 210000هكتولتر.

و كانت الملكية الصغيرة هي الشكل الأكثر انتشارا في هذه الجهة ، و لذلك كانت الفوارق الاجتماعية أقل حدة منها في بية الجات ، و أما السكان الذين عرفوا بشدة حزمهم فقد كانوا هم أيضا ضحية الجباية و آفة الربا ، و بحكم تورطها في ثورة 1864 عرفت هذه الجهة بشع أنواع القمع على يدي الجنرال أحمد زروق الذي أجبر السكان على الافتراض من المرابين اليهود بفوائض بلغت أربعين بالمئة لدفع غرامة الحرب ، و قد كتب جان قانياج في ذلك مايلي : إن الربا اليهودي قد عمل على مواصلة تخريب جهة الساحل كما ساعد أيضا على انتقل ملكية الكثير من غابات الزيتون إلى المرابين [1] .و هكذا فإن ثروة الساحل لم تخد مصلحة أبنا هذه الجهة بل كانت توجه في معظمها للمنتفعين بالضرائب و للمرابين .

و كانت واحات الجنوب ، و بالأخص واحات الجريد موطنا ممتازا لغراسة النخيل ، حيث كانت التمور التي يتراوح إنتاجها السنوي بين 200و 300 ألف قنطار تمثل أهم مورد في الجهة ، و رغم ذلك فإن أغلبية السكان كانت تعيش في فقر مدقع لأن ثروة المنطقة كانت تنتفع بها السلطة[2].

و في داخل الايالة كانت القبائل المتنقلة و شبه المتنقلة تعيش على الرعي في أراضيها الجماعية و تتعاطى فضلا عن ذلك زراعة الحبوب و خاصة منها الزراعة الشعير التي تعتبر رهانا حقيقيا بحكم تقلبات الطقس و كانت هذه الموارد غير منتظمة و غير كافية لسد حاجيات السكان ، مما اضطر

[1]- نفسه ، ص 18.
[2]- حسب تقرير الجنرال فورجمول سنة 1883 أن مجمل الضرائب التي عينت على التمور قدرت ب إثناعشرفرنك و هي تساوي مقدار مئة كلغ من التمور

القبائل إلى نهب مناطق الحضر من حين لأخر و الوقوف أما تعسف النظام و حكمه المطلق و ذلك بالانتفاضات المتكررة.

و قد لعبت القبائل دورا هاما في اقتصاد البلاد بتعاطيها لتربية الأغنام فهي بذلك توفر الصوف و الجلود التي تعتبر موادا أولية لصناعة يعيش منها جزءا معتبر ، من السكان في مدن عديدة كتونس و القيروان و غيرها ، إلا أن الصناعات التونسية مثل صناعة الأقمشة و الشاشية و المعادن و الصياغة و العطورات عرفت قبيل الحماية تدهورا تاما ، حيث أنها لم تقدر على منافسة المنتوجات الأوربية المصنعة و التي لا يوظف عليها أكثر من ثمانية بالمئة من قيمتها عند نزولها بتونس و المعفاة من الضرائب المحلية التي توظف على البضائع التونسية ، و لم تستطع الحكومة التونسية منع أو تحديد دخول هذه البضائع إلى البلاد و ذلك بحكم نظام الامتيازات الذي تتمتع به بعض الدول الأجنبية ، فغمرت المنتوجات الأوربية مختلف أنحاء الايالة ، و قد أدى غزو أقمشة ليون الحريرية للأسواق المحلية إلى إفلاس الحائكين التونسيين و علاوة على كل هذا انخفضت قيمة صادرات الشاشية بداية من سنة 1875 إلى أقل من 250000فرنك بعد أن كانت تفوق 3 ملايين فرنك فيما بين 1861 و 1863 و ذلك نتيجة المزاحمة التي كانت تلقاها هذه الصناعة في أسواقها التقليدية كتركيا و إفريقيا الشمالية و مصر ، حيث وجدت الطرايش الفرنسية و المجرية التونسية رواجا كبيرا ، و من الطبيعي أن يكون لهذا الوضع انعكاسات وخيمة على الحرفيين التونسيين حيث تحول الكثير منهم إلى بطالين [1].

و قد مست هذه الوضعية البرجوازية الإسلامية التي أفلست من جراء المزاحمة الأجنبية ، فهجرت تجارة تصدير المنتوجات الفلاحية و توريد البضائع المصنعة ، و تركتها إلى عدد قليل من التجار المرسيلين و الجنوبيين الذين انضمت إليهم حفنة من اليهود استغلت الأزمة المالية لتحقق الإثراء و كانت المبادلات التجارية تقع بالدرجة الأولى مع مرسيليا و الموانئ الايطالية و مالطة و انجلترا .

أما الجانب الثقافي قبيل الحماية حيث أدرك عقلاء تونس ممن أسندت لهم مهام في إدارة شؤون البلاد عجز ثقافتهم في الميدان العلمي التطبيقي وطغيان النمط التقليدي التكراري ،وقد احتد

[1]- محجوبي ،المرجع السابق ، ص 19.

إدراكهم هذا خاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر ،فشرعوا في الاستقدام إلى تونس نماذج عن المدارس العسكرية الأوربية والكليات المتخصصة وإيجاد نظام تعليمي جديد كفيل بمسايرة العصر ومن المنجزات البارزة في هذا الاتجاه مدرسة البوليتيكنيك التي أقيمت في حدود سنة 1850م والتي جمع برنامجها الدراسي بين الثقافة العامة والفن العسكري ،وقد سبق إنشاء هذه المدرسة إصدار قانون 1842م الذي نظم سير الدروس و حسن رواتب الأساتذة و فرض عليهم الدوام لعملية التدريس و جاء مرسوم سنة 1875م ليعيد النظر في البرامج الدراسية ، فنصت مادته الأولى على ضرورة التوسيع إلى جانب العلوم الدينية و الفلسفية ، وفي نفس السنة وسع الوزير خير الدين إطارات جامعة الزيتونة و زاد في عدد أساتذة الكليات الأقاليم و أنشأ في تونس مكتبة علمية كبرى و مؤسسة تعليمية يغلب عليها الطابع العلمي هي كلية الصادقية و كان أفضل عناصر هذه الكلية يوفدون في بعثات إلى أوربا تحضيرا لهم لدخول الجمعات و المدارس العليا و يضاف إلى هذا المشهود وجود عشرين مدرسة أجنبية بتونس كانت تباشر عملية التعليم حسب المناهج الغربية[1] .

2–تونس أثناء الحماية

[1] - حباسي ، المرجع السابق ، ص 143-144 .

فرضت الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في أواخر أفريل 1881 ، إذ أقامت السلطة الفرنسية نظاما عسكريا الذي انحصر على الجهة الساحلية للبلاد الذي يشمل فيما بعد أطراف البلاد أما فيما يخص المناطق الداخلية فإنه اكتفى بفرض الرقابة و السيطرة على أهم المدن الكبرى و تميز النظام السياسي الذي ساد المجتمع التونسي خاضعا لمعاهدة باردوا [1] بمقتضاه تشير إلى التسيير النظام الداخلي الذي يبقى للإدارة التونسية و أعوانها ومشايخها ، أما الباي فيبقى صوريا ممثلا السلطة التنفيذية يحكم للبلاد ، فيما أنفرد المقيم العام الفرنسي بالشؤون الخارجية و الموارد المالية .

و تعد معاهدة باردو أول خطوة قامت عليها نظام الحماية ، إلا أنها تلتزم شكليا بالمحافظة على أسس الدولة التونسية ، و لم تعطي في مضمونها صورة واضحة و صريحة إلى الصبغة التنظيمية التي تحدد طبيعة العلاقة بين الطرق لتونسية و الفرنسي بل اكتفت بجملة من مبادئ عامة قابلة لعدة تأويلات ، وهكذا نجد بأن معاهدة باردوا تتضمن فرض نظام يحترم في مجمله مظاهر السيادة الداخلية لدواليب الدولة التونسية التقليدية و في نفس الوقت يعطي ضمانات لدول الأوربية على حماية مصالحها و امتيازاتها التي تحصلت عليها قبل التوغل الفرنسي[2]، بينما كان رد فعل الدول العظمى، و خاصة ايطاليا لفكرة الحماية الفرنسية على تونس بالرفض حتى اغلبيه الشارع الفرنسي كان مناهضا لفكرة التوسع الفرنسي ، أما رد فعل الشعب التونسي فتمثل في المقاومات الشعبية و لا سيما أثناء الدخول الجيش الفرنسي سنة 1881م و تجدر الإشارة إلا أن بناة الحماية اعتبروا هذا الشكل من المراقبة الغير مباشرة أقل تكلفة و أكثر مصلحة و منفعة من غيره من الأنظمة الاستعمارية باعتباره نظام يعطي للحكومة الفرنسية جميع صلاحيات لتنظيم شؤون البلاد التونسية دون استشارة البرلمان . مع انتهاج سياسة الحرب الباردة أو سياسة التهدئة مع الشعب التونسي التي تيسر على انضمام النخبة المؤهلة و تشغيلها كوسيط بين الإدارة و المجتمع التونسي[3] .

و في سنة 1983 م نشهد الكثير من التغيرات و التطورات على مستوى النظام السياسي التونسي ، و خاصة بعد توقيع اتفاقية المرسى في 8 جوان 1883 م التي أدت إلى تغيير النظام السياسي الذي كان سائد قبل هذه الفترة إلى نظام سياسي مزدوج التركيب ، أحده متأثر بأسلوب

[1]- المجلس الذي حضر ُناء غمضاء معاهد باردوا هم محمد الصادق الباي ومحمد البكوش ومدير المور الخارجية العربي زروق رئيس المجلس البلدي العزيز بوعتور وزير المالية مصطفى بن اسماعيل الوزير الكبر محمد خزندار وزير مستشار الفريك مصلي المترجم الأول غسطان القنصل العام لفرنسا لجنرال بريار الجنرال موران أمار مترجم عسكري الطاهر بلحسين أمير اللواء العسة لمصونة

[2]- محمد الهادي : المرجع السابق ، ص 407-411.

[3]- نور الدين الدوقي : المغرب و الاستعمار الفرنسي ، دار سراس لنشر بتونس ، 1997.، ص 16.

الحكم الشرقي (العثماني) يشرف عليه التونسيين و الأخر حديث لا يختلف عن أسلوب الحكم الفرنسي يسيطر عليه الفرنسيين . و من خلال ما اشرنا إليه نستطيع وصف النظام السياسي التونسي خلال هذه الفترة بالدولة الكولونية[1] .

بعد أن فقدت البلاد التونسية سيادتها الخارجية و اضمحلال سيادتها الداخلية إلا أنه لم يؤدي القضاء على الدولة كبنية فوقية هذا إذا استشهدنا بالمراسيم الداخلية التي نصت على أن تونس كيان يتميز بالذاتية السياسية ، أما ما قامت به فرنسا هو تغيير النظام الذي كان سائد و تعد معاهدة المرسى بالنسبة لسلطة الفرنسية نقطة جوهرية تسمع بتطوير نظام الحماية من الحكم الغير مباشر نحو الحكم المباشر ووسيلة لتعديلات السياسية التي ستدخلها فرنسا من أجل دعم مركزها و نفوذها بتونس [2] ، فقد أصبح المقيم العام هو الحاكم الفعلي للبلاد بينما يقتصر مهام الباي على توقيع الأوامر و القوانين هذا بالإضافة إلى المقيم العام الذي يدير شؤون الحكومة ،وفي إطار الإصلاحات الفرنسية تم إنشاء مصالح شبه وزارية يديرها الفرنسيين و من بين أهم المصالح إدارة الأشغال العامة ، و إدارة المالية و التعليم و الفلاحة ، و إلي جانب هذه المناصب الشبه وزارية ، نجد القائد العام للجيش الفرنسي بتونس الذي يعتبر بمثابة الوزير الدفاع ، و كل هذه المؤسسات تشكل حكومة الباي .

في إطار إصلاحات سنة 1883 ظهر منصب جديد في النظام السياسي الذي يتمثل في منصب التنسيق بين مختلف مصالح الحكومة كما يصهر على نشر القوانين و حفظ وثائق الدولة و أول من شغل هذا المنصب هو موريس يوم بار ثم استغله برنارد روا الذي عمل فيه 20 سنة من سنة

[1]- نورالدين ، المرجع السابق ، ص 17.
[2]- نفسه ، ص 17.

1889-1910م و انتهجت سياسته على تكريس المحابات و المحسوبية ومبدأ التفوق الفرنسي و ظل هذا البناء الساسي قائم إلى غاية سنة 1947 م [1] .

و ابتداءا من 1884 م سعت الإدارة الفرنسية لإنشاء نظام المراقبة المدنية [2]، إذ برزت أول مركز مراقبة مدنية في 4 أكتوبر سنة 1884 م ، ثم امتد نظام المراقبة بالتدريج إلى كل أرجاء البلاد ، فيما استولى الفرنسيين على جل الوظائف الإدارية لدولة في إطار فرض سيطرتها الإدارية حيث وصلت عدد موظفي الفرنسيين سنة 1938 سبعة آلاف موظف .

يدخل هذا التنظيم في نطاق الإحاطة بمصلحة الجالية الفرنسية بتونس ، التي أصرت فيما بعد على تكوين مجالس بلدية و مؤسسات تمثيلية قطاعية تمكنها من إبلاغها صوتها إلى الإدارة التنفيذية ، فتشكل مجلس استشاري يمثل سنة1891م لتمثيل مصالح المعمرين لدى الحكومة ، و هو مجلس منتخب يضم ممثلي الغرف الفلاحية و التجارية و المعمرين ، مهمته مناقشة الميزانية و الإدلاء بمواقف الفرنسيين ، و بعد ضغط التونسيين أضيف جناح يمثل الأهالي و ذلك سنة 1907م .

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى شرع المقيم العام الفرنسية لوسيان سان في إعادة النظر في هذا المجلس من اجل إحباط مطالبة الحركة الوطنية ببرلمان منتخب و حكومة مسؤولة أمامه ، و بمقتضى أمر صدر في 13 جويلية 1922 ، جرى تغيير المجلس الاستشاري بالمجلس الكبير [3] يتشكل من 73 عضو يضم قسم فرنسي يمثل 53 عضوا و الباقي يمثل القسم تونسي .

و يكمن دور المجلس الكبير في مناقشة الميزانية و النظر في الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية و كذلك الاتفاقيات و القروض التي تقررها الدولة ، كما انه يظل في جوهره مجلسا استشاريا ليس له الحق في المبادرة التشريعية و ليس له الحق بفرض مقترحاته عل الحكومة .و ظل هذا المجلس على وضعه إلى غاية سنة 1945م عندما قررت الحكومة تعديله على أساس إقرار التساوي العددي بين الفرنسيين و التونسيين .

إن السياسة الفرنسية في الايالة التونسية كان لا ترغب في التورط في النفقات السياسية و لا سيما النفقات السياسية و العسكرية المتزايدة من خلال احتلالها للجزائر ، و هنا ركزت على السياسة الزراعية التي تمثل لها الهدف الأسمى سياسيا و اقتصاديا ، غير أن هذا الهدف لم يكن ممكنا

[1]- نور الدين ،المرجع السابق ، ص 18.
[2]- نظام المراقبة المدنية عبارن عن نظام استخبارات و استعلامات يعمل المراقبة الاهالي و إعطاء الأوامر إلى القياد و و تزويد المقيم العام بالمعلومات عن الاوضاع السياسية في مناطقهم و في نفس لا يتمتع بسلطة تنفيذية بل بسلطة تقديرية
[3]- نفسه ، ص 20.

في بداية الوجود الفرنسي هذا ما دفعها إلى فتح مجال الاستثمار الفلاحية و العقارية أمام رجال الأعمال و المؤسسات المصرفية و الشركات العقارية و شخصيات الكبرى في البلاد ، فخلال فترة ما بين 1881-1889م عرفت استثمار الأراضي الواقعة بجهة مرناق ووادي مجردة الأوسط و منطقة صفاقس . حيث بلغت مجمل مساحة الأراضي التي انتقلت ملكيتها للفرنسيين خلال الخمس السنوات الأولى من الوجود الفرنسي مئتين و ثلاث و ستين ألف هكتار وهي عبارة عن أراضي واسعة مخصصة عادة للزراع الكبر ى [1]و توجد في المناطق الخصبة شمالي السلسلة الظهرية [2].

حقيقة الأمر أن جل هذه الأراضي كانت وضعيتها القانونية غامضة ، ما جعل الإدارة الفرنسية تتدخل لسن مرسوم لوضع حد لهذا الغموض ، و تمثل هذا المرسوم في قانون 1 جويليا 1885م الذي أصدره المقيم العام بول كمبون يهدف إلى إعادة بناء الملكية في تونس حسب الأسس السائد في فرنسا كما انه يعطي حقوق ثابتة للجالية الأوربية للأراضي التي أشتروها من الأهالي أو من الإدارة الفرنسية هذا بالإضافة إلى أنه يسعى إلى فتح الأراضي الموقفة (الاحباس) أمام الحركة الاستثمارية . و بهذا يعد قانون 1885 م فتح المجال أمام الأوربين للإستثمار الواسع في الأراضي على حساب الشعب التونسي [3].

عرفت سنة 1892 م قدوم بول بورد إلى البلاد التونسية الذي عمل على تأسيس مصلحة عرفت باملاك الدولة تسهر على احصاء الاراضي العمومية و الاراضي الموقفة [4]مع تحديدها و عرضها على الفرنسيين بأثمان رخيصة و هذا من أجل الحد من خطورة الجالية الأوربية و خاصة الايطالية و في نفس الوقت تعويض للجالية الفرنسية.

و اعتماد على نصائح المراقب المدني جيروم فيدال ، عمل بول بورد على إحصاء أراضي الحبس و إحيائها و تجزئتها و بيعها بسعر عشرة فرنكات للهكتار الواحد ، دون اعتبار لحقوق المقيمين من قبائل المثاليث و نفات ، مما دفع بهذه القبائل إلى المعارضة التي أجبرت الإدارة الفرنسية إلى تشكيل لجنة مختلطة تسعى إلى إعادة النظر في مطالب الأهالي ،غير أن اللجنة قامت بطل وثائق

---

[1]- كانت هذه الاراضي قبل فرض الحماية الفرنسية على تونس تحت تصرف أعيان المدن و و الطبقة الحاكمة .

[2]- نور الدين ، المرجع السابق ، ص 74.

[3]- نفسه ،ص 75.

[4]- و هي الاراضي التي منحت في عهد الباي قبل الحماية و لم تكن وضعيتها القانونية واضحة

شبه مستحيلة على القبائل ، و نظرا لهذا لذلك خرجت اللجنة بضم جزء كبير من أراضي القبائل إلى أملاك الدولة و تخصيص بعض المناطق الرعوية للقبائل[1].

كما امتدت أطماع الإدارة الفرنسية على أراضي القبائل ، من خلال قانون 15 جانفي 1896 الذي يلحق بأملاك الدولة الأراضي الموات و هي واقعة بالمناطق الجدبة و كذلك أراضي الفسفاطية الواقعة في حوض قفصة ، و لكن تنفيذه اصطدم بالقبائل المنتفعة بالمراعي و نذكر على سبيل المثال الأراضي الواقعة بين السواسي و أراضي جلاص الذي اشترته شركة خفية الاسم ، هذا ما دفع الحكومة إلى تشكيل لجنة للنظر في وضعية الأراضي العروشية .و انتهى بصدور مرسوم في 14 جانفي 1901م الذي يقر الاعتراف بحق تمتع القبائل الاستفادة من موارد أراضيه و خاصة مناطق تالة و قفصة و الفراشيش و ماجر و الهمامة [2].

كما إن الوضع الثقافي بتونس اقل سوا بكم ما توفر لها من مؤسسات تعليمية أهلية في لإطار الإصلاحات التي نفذها أحمد باي و خير الدين باشا قبل تركيز الحماية ، و إنما كانت توجد بسائر الإنحاء كتاتيب ابتدائية للتعليم القرآني و للكتابة و القراءة على يد مؤدبين غابهم مغاربة أو من البوادي القاصرين ، و إن كان للطالب استعداد و مدد ، ينتقل إلى جامع الزيتونة فيدرس بالتدرج العلوم العربية و الفقهية ليتأهل في الأكثر لإشهاد العام ، و بعد نشأة الحماية جميع المدارس العمومية العربية و الفقهية ليتأهل في الأكثر للإشهار العام ، و بعد نشأة الحماية جميع المدارس العمومية و الخصوصية في منظومة واحدة تخضع لأشراف الدولة ، و كانت سياسة الحماية ترمز إلى جعل المدرسة أداة لبث النفوذ الثقافي الفرنسي و احتواء النخب الوسيطة التي يمكن توظيفها بعد تخرجها لأشراف الدولة [3].

كانت سياسة الحماية ترمي إلى جعل المدرسة أداة لبث النفوذ الثقافي الفرنسي و احتواء النخب الوسيطة التي يمكن توظيفها بعد تخرجها من المدارس العصرية في قطاعات الصحة و المالية و التعليم و قد اقتضى تحقيق هذه الأهداف فرض تعليم اللغة الفرنسية في جميع المؤسسات و سلوك سياسة تربوية انتقائية هدفها الحد من عدد المتخرجين ، و وسيلتها تعطيل الإقبال على التعليم

[1]- الدقي ،المرجع السابق ، ص 76-77.
[2]- نفسه ، ص 78.
[3]- نفسه ، ص 129.

العصري و حصره في المناطق التي طالها التأثير الاستعماري، و لكن ضرورة الاعتماد على لغتين رسميتين : لغة عربية و لفرنسية في التعامل الإداري فرضت إنشاء شبكة من المؤسسات الابتدائية المزدوجة أطلق عليها اسم المدارس العربية الفرنسية لأعداد أعوان و موظفين متشبعين بالثقافة الفرنسية و مطلعين على اللغة العربية ، بالقدر الذي يمكن ، القيام بادوار النقل و الترجمة التي يقتضيها التعامل في مجتمع مزدوج الذي يمكن من القيام بأدوار النقل و الترجمة التي يقتضيها التعامل في مجتمع مزدوج التركيب ، و كانت الشبكة المدرسية تتكون في البداية الحماية من 60 مدرسة عمومية ثم جرى توسيعها بالتدرج رغم الضغوط التي يمارسها غلاة الاستعمار ، على رأسهم فيكتور دي كرنيار زعيم المعمرين الذي كان يردد بدون انقطاع أن التونسي كلما تعلم ازداد حقدا [1].

كما لعبت الحركة الإصلاحية و الوطنية التونسية دورا في حث الإدارة على جعل التعليم الابتدائي مجانيا و إجباريا و تيسير سبل المؤسسات الثانوية و العالية ، و مع أن فرص التعليم التونسيين ظلت محدودة فقد قفز عدد المدارس الابتدائية العصرية إلى 184 سنة 1920 و 296 سنة 1936 ، بينها ستين مدرسة خاصة ، و لم تكن هذه المدارس موزعة توزيعا مكافئا على جهات البلاد ، فقد واكب التجهيز المدرسي في خطوطه الكبرى حركة الاستيطان ، فتركزت مؤسسات التعليم في المراكز ذات الكثافة السكانية الأوربية ، أي المدن و السهول الخصبة و مناطق الاستغلال المنجمي [2] ، فيما ظلت جهات الوسط و الجنوب تفتقر إلى حد الأدنى من التجهيزات.

و تبرز في هذا المجال المناطق التي تطلها يد الابتزاز العقاري كمجالات ترتفع فيها مؤشرات التمدرس[3]مثل الوطن القبلي و الساحل ، و يعتبر الإقبال عل التعليم بمثابة رد فعل لمجتمع مهدد في كيانه ، و لكن غلاة الاستعمار عرقلوا نمو أكثر الشرائح الاجتماعية تطور تطورا بغلق أفاق الوظائف العمومية المرموقة في وجهوهم ،و حشر خريجي جامعة الزيتونة.

و كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة للتونسيين للوصول عالم الوظائف المرموقة هي متابعة الدراسة الثانوية بالمدرسة الثانوية بالمدرسة الصادقية التي كانت تعد التلاميذ إلى المدرسة العلوية التي كان يتخرج منها المعلمون أو مهد كارنوا الفرنسي الذي يهيئ خريجيه لمواصلة التعليم العالي ، أما التعليم الزيتوني

[1]- حسن حسني ، تاريخ تونس ، الدار التونسية للنشر ،1983 ، ص 217.
[2]- الدقي ،المرجع السابق ، ص 131.
[3]- حسن حسني ، المرجع السابق ، ص 218.

فكان يحظى بإقبال كبير من جل الأوساط الاجتماعية التي لم يتيسر لها دخول المدارس العصرية ، و قد بلغ عدد تلاميذه وطلبته ب 3547 سنة 1911م [1] ، و لكن شهادته كانت لا تكمن من ممارسة المهن المرتبطة بالقطاع الرأسمالي أو بجهاز الدولة إل في حالات نادرة .

و رغم الضغوط التي مارسها الوطنيون على الحكومة من أجل إقرار حق التونسيين في جميع الوظائف العمومية و تلبية تطلع عامة الناس إلى المعرفة العصرية ، فقد ظلت المدارس العربية و الفرنسية لمدة طويلة مقصورة على عدد ضئيل من الأطفال لتونسيين ، و لم يرتفع عدد تلاميذها بصورة واضحة إلا بعد الحرب العالمية الثانية [2] .

و لعل هذا الغبن الثقافي نتيجة طبيعية للسياسة المالية الاستعمارية التي لم تول النفقات المكانة التي تستحقها ، فيما حظيت قطاعات أخرى ليست للتونسيين مصلحة في تطويرها الدعم المالي.

[1]- الدقي ، المرجع السابق ، ص 131

[2]- حسن حسني ،المرجع السابق ، ص 218.

1- السياسية الاستعمارية و الطرق الصوفية :

هذه السياسة الاستعمارية تجاه الطرق قد ارتكزت على ثنائية هامة تمثلت في الاستصعاب و الإغراء من ناحية و في الحصار المخنق من ناحية أخرى سياسة الاحتواء الاستعماري إن القنوات الأساسية للاستيعاب و الاحتواء التي استعملتها الإدارة الفرنسية تجاه الطرق قد مرت بمرحلتين : الأولى كان هدفها تحييد هذه المؤسسات و اكتساب صداقتها ، أما الثانية فكانت ترمي إلى توظيف هذه المؤسسات بهدف مقاومة الوعي الوطني الناشئ الذي أصبح يهدد بصفة جدية الكيان الاستعماري و ذلك خاصة في الثلاثينات من هذا القرن .
لكن و إن نجحت هذه السياسة في المرحلة الأولى بكل سهولة و نجاعة انها تفشل و تعجز عن تحقيق أهدافها في المرحلة الآنية لأسباب متشبعة [1].

فقبل النظر في مظاهر الاحتواء ، يبقى من المهم التمعن في قنواته و أهمها تحويل شيوخ الزوايا إلى هيئة من الموظفين تقع تزكيتهم من طرف الإدارة الاستعمارية ، و هذه العملية في الحقيقة قد سبقت الدخول الفرنسي إلى البلاد حيث أوجدها البايات الحسينيون من قبل ،و ذلك بالاعتراف القانوني و الإداري لهذه الفئة الدينية ،و وضعها تحت مسؤول يسمى شيخ مشايخ الطريقة .

1-1- توظيف مشائخ الطرق الصوفية :

لكن و إن استوظف البايات شيوخ الطرق من باب الاعتراف بمكانتهم ووزنهم في إطار تحالف ضمني متكافئ ، واصلت الإدارة الاستعمارية هذه السياسة بهدف الإخضاع و المحاصرة و فرض التبعية لها .و قد استطاعت بذلك أن تنتقي فئة من الأصدقاء المخلصين ، و العلاقات المتينة التي ربطت فرنسا بالطرق و ببعض شيوخها [2].

لعل أهم مثال على توظيف الفرنسي لمشايخ الطرق الصوفية نراه من خلال ماقام به محمد بالطيب بن إبراهيم شيخ الطريقة القادرية بور قلة ، فيما سمي بقضية المركيز ديوريس الذي خرج في مهمة استكشافية لمصلحة الفرنسية ، إلا انه لم يلبث أن قتل من طرف الطوارق ، و لم تتمكن الإدارة من القبض على الجناة ، فما كان من محمد بالطيب إلا أن توجه في أفريل سنة 1898م نحو الجنوب بدعوى تفقد الزوايا القادرية هناك و استطاع أن يغرر بثلاثة من القتلة ، مدعيا لهم أنه سيحصل لهم

---

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 96.
[2]- نفسه ، 97.

على الأمان بفضل مكانته الدينية و لما وصل بهم إلى ذهبية سلمهم إلى ضابط الفرنسي الذي أرسلهم إلى مدنين ، و من أحيلوا إلى سوسة للمثول أما لمحمكم الجناحية بها[1]. أما بالنسبة لطريقة التيجانية فنجد المقدم سعد بن الحاج ناصر ، لعب دور فعال أثناء حوادث فيما بين 1915م و1916م ، و خلال الاجتماعات المتوالية التي يقوم بها مع أتباع الطريقة التيجانية ، إذ كان يحثهم بالوقوف إلى الجيش الفرنسي[2] .

إن لم تكن هذه العلاقات ظاهرة منتشرة إلا أن بها مؤشرات تدل على تأهيل خاص لدى الطرق لهذه الصداقة ،و ذلك ليس في تونس فقط ، بل و أيضا بالجزائر مثلما يظهر من هذه الشهادة :...فمع بقائهم أحيانا متعصبين ضدنا ، نراهم أحيانا أخرى يختلطون بنا لضروريات مصلحتهم ، فنقابلهم في صالوناتنا أين يحضرون حفلاتنا الرسمية ، و يجلسون في مقاهينا على شوارعنا الباريسية لاستهلاك بعض المشروبات المشبوهة ... فقد تزوج شيخ زاوية عين مهدي بالآنسة أوريلي بيكار التي تعرف عليها بمدينة بوردو ، أما مولاي عبد السلام شيخ الطريقة الطيبية فقد تزوج بمدرسة انجليزية ، و في هذه الأيام الأخيرة ، طلب سيدي حمزة شيخ أولاد سيدي الشيخ يد الآنسة فيري ابنة المسؤول على المراقبة الخطوط الحديدية ، و لم يظهر البتة أن هذه التحالفات قد مست من هيبة هذه الشخصيات القوية ، و طبعا لا تقف هذه الصداقة عند هذا الحد لا، فقد اشتهر روا الممثل القنصلي الفرنسي بالكاف بصداقته المتينة مع سيدي محمد الميزوني شيخ القادرية بالكاف ، ثم مع ابنه بالتبني سيدي قدور ، و قد كان روا يتردد على بيته ، و كان سيدي قدور لا ينقطع عن الثناء على سيدي روا طالبا من الله أن يحفظه لتونس [3].

إن عدم تطرقنا لطريقة التيجانية بشكل ألالافت ، و هذا يعود إلى الصداقة التاريخية التيجانية ، فلا فائدة في الصداقة التاريخية و الخاصة التي تربطها بفرنسا و هي تكاد تكون من بديهيات الواقع ، إلا أن الطريف من هذه الناحية أنها قبلت أعدادا قليلة من المنتمين غير المسلمين ، من المسحيين الذين قدموا خدمات شخصية لرؤساء الطريقة و ذلك كأعضاء أحرار و شرفيين ، و هذا طبعا ما يتجاوز الصداقة إلى التنويه .

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 97.
[2]- العجيلي ، نفسه ، ص 97-98.
[3]- لطيفة الأخضر، الاسلام الطرقي ، دار سراس للنشر تونس ، 93، 1993

هذه القنوات الأساسية للاحتواء ، أما مظاهره فتبرز بدورها عبر سياسة الامتيازات و التسهيلات و التشريفات التي تخصصها الإدارة الفرنسية لبعض الطرق و لبعض شيوخها .

ففي سنة 1903م، توجه سيدي قدور[1] إلى الوزير روا بطلب إعفاء أحفاده الاثنين محمد و أحمد الميزوني من الخدمة العسكرية . و في افريل 1898م، طلب نفس الشيخ أن يعفى الحطب و التبن و العشب الموجه إلى زاويته من الجباية فكان له ذلك ، و إضافة إلى أنه اعفي ابتدءا من سنة 1901م من ضريبة السخرة [2]، و أكثر من كل هذا لم يبخل عليه روا بالأموال فوجه له حوالتين الأولى مقدارها 800 فرنك و الثانية 500 فرنك كإعانة لزاويته .

مساعدة الزاوية التيجانية بتماسين بالجزائر فقد خصها روا بمقدار 3000 فرنك [3]كتعويض عن ضريبة القانون التي يدفعها الزاوية سنويا عن نخيلها بمنطقة الجريد التونسي [4]. و هذا لنوع من الإعفاء الجبائي له كل مبرراته ، إضافة إلى القانون الصادر بتاريخ 24 جانفي 1893م و 20 جويلية 1896م، و الذي يعفي شيوخ الطرق من الخدمة العسكرية [5]. هذه بعض مظاهر الاحتواء الاستعماري في مرحلتين الأولى و هي تقريبا تلخص عبارات العقد السياسي الذي يربط بين السلطة الفرنسية من ناحية و بعض مشايخ الطرق من ناحية أخرى.

أما في المرحلة الثانية فإن الظروف المستجدة أجبرت الإدارة الفرنسية إلى المزيد في التفكير لإعادة النظر في هذا العقد من أجل عقلنيته ، و هذا باستغلال العناصر المختار و الذين يمثلون أصدقاء فرنسا فيبسط سيطرتها و إخماد المجتمع المدني[6] .

في منشور 24 جوان 1934م الصادر عن المقيم العام، و الموجه إلى المراقبين المدنيين و مديري مكاتب الشؤون الأهلية حيث يقول : ..و يبدو أن فرصة هامة تتوفر لنا لفتح سياسة أعيان موجهة نحو إعادة الاعتبار المعنوي لطبقة من الرجال أصداء المؤسسات المستقرة أولئك الذين هم بصفة عامة بعيدون عن الطموحات المادية هم ورثة رصيد معنوي يتركه إهمالنا يموت بين أيديهم ، إلا إذا دفعهم إهمالنا إلى إحيائه عن طريق الحقد و في المعارضة ، و هؤلاء الأعيان تختارونهم في عالم

---

[1]- قدور بن الحاج محمد بن عمر الميزوني ، هو ابن العدل بلقاسم بن حسن أحد أتباع الحاج محمد بن عمار الميزوني المؤسس الأول للرواية القادرية بالكاف و الديوان بالحاضرة و عند دخول الفرنسيين للبلاد كان لهذه الزاوية نفوذ على كامل غرب و شمال غرب الايالة ووسطها الغربي وصولا إلى الشرق الجزائر ، كما كانت له علاقة وطيدة مع العون القنصلي الفرنسي روا ، و هي علاقات أستغلها هذا الأخير في تسهيل مهمة استيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الكاف ، و توفي سيدي قدور يوم 1916/7/29.

[2]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 94.

[3]- العجيلي ، نفسه ، ص 94.

[4]- كانت الزوايا في كامل العهد الحسيني معفاة من ضريب العشر و لقانون و المجبى لكن إدارة الحماية عمت هذه الضرائب على كل السكان منذ الفترة لأولى لإنتصابها ، على أنها قامت بالتعويض عن ذلك بالنسبة للطرق .

[5]- العجيلي ، نفسه ، ص 93.

[6]- نقصد بإخماد المجتمع المدني هو التخوف الادارة الفرنسية من فكر الحركة الوطنية .

قضاة الإسلام من بين أعلى موظفي الدين من الطرق و من العائلات الكبرى البورجوازية و الريفية و لا تترددوا في توسيع سياسة و من العائلات الكبرى البورجوازية و الريفية ، و لا تترددوا في توسيع سياسة الاهتمام بهم و أجلالهم إلى حد الامتياز السياسي [1] .

بناءا من هذا القرار نرى بأن هناك الكثير من شيوخ الزوايا مرشحة لمختلف التشريفات الفرنسية ، و يأتي في مقدمتهم الشيخ صالح بن شعبان الشيخ الأكبر للقادرية باقتراح من وزارة الشؤون لخارجية الفرنسية فهو ينتمي إلى عائلة بورجوازية من الصناعيين الكبار بمدينة تونس و قد انضوى بكل إخلاص منذ البداية تحت حمايتنا ، متوليا المشيخة الكبرى بعد أبيه على رأس الطريقة القادرية الكبرى ، و قد وضع كل ببته في خدمة تسامح و سلام العقول و هو يعد من بين العناصر المعدلة لرأي الأعيان الإخوان بكل نجاعه ، كما اقترح لوسام الشرف الفرنسي سيدي النوري بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية بزاوية تبرسق في جوان 1934م و أصبحت هذه السياسة بدورها دافعا لطلب التشريف و التوسيم من طرف الشيوخ أنفسهم مثل محمد العربي الأزهر الشريف شيخ الزاوية القادرية بالقصور الذي توجه في أوت 1942م إلى الماريشال بيتان بفرنسا يطلب منه منحه وسام الشرف بصفته احد أفراد العائلة الإبراهيمية الشريفة التي كانت دائما فرنسية

2-1- سياسة الحصار الاستعماري

اعتمادا على مظاهر الاحتواء المتعددة هذه انتشرت فكرة أحادية الجانب لأنها لا تنظر إلا إلى ظواهر الأمور، و تتمثل في القول بأن الاستعمار قد ساعد و شجع الطرق الدينية في بسط هيمنتها على المجتمع ، في حين كان في الواقع يشجعها فقط في حدود مصالحه الأنية و ذلك في نفس الوقت الذي كان فيه يسحب البساط من تحتها ، بكل بجاعة و بنوع من العنف الخفي ، عبر تسيطر و تطبيق سياسة محورا الأساسي خنق الفضاءات الطرقية و قطع شرايين حياتها المعنوية مثل إلغاء الحرمة ، وكذلك المادية بتحجير الزيارات و جمع الصدقات و بالمس من احبساها ، و كذلك بالتدخلات الأخرى المتنوعة .

[1]- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 95.

3-1- منع الزيارات :

أما الزيارات التي تعد أهم مدا خيل الطرق الصوفية التونسية ،خاصة إذا و إن كان محصول السنوي من الزيارات و الأعطيات نقدا و عينا بلغ سنة 1925م حوالي 120000فرنك بالنسبة إلى الطريقة القادرية بتونس و 24000فرنك بالنسبة إلى الطريقة التجانية [1]، و بما أن الزيارة تعني إلى جانب الصداقات ، علاقة معنوية مع هذا المجتمع ، لأن الزيارة هي تكريس للولاء الروحي و للتبعية المقدسة و المتواصلة التي تعلنها فئات المجتمع تجاه هذه المؤسسات الطرقية ، مقابل التوسط هذه المرة بينها و بين الإله .على أن المعنى الأخر للزيارة و المتمثل في جمع الأموال ، كانت له أهمية حياتية بالنسبة للطرق ، و قد رأينا قيمة هذه المداخيل تفوق قيمة مداخيل الأملاك المختلفة الأخرى للزوايا بالبلاد .

في تفكير الإدارة الفرنسية التي تريد عقلنة العلاقات الجبائية و هو منطق يعني بالنسبة لمصير الطرق ضرب أحد مقوماتها الأساسية، و في إطار السياسة الفرنسية الهادفة إلى حرمان و ضعف الطرق الصوفية من أجل الاستفادة من نفوذها داخل المجتمع التونسي و تمرير سياستها . بادرت هذه السلطة في مرحلة أولى بإصدار أمر حكومي بتاريخ 20 جوان 1911م[2] صادر عن الوزير الكبر يوسف جعيط ، و موجه على العمال يقول فيه : و بعد ، فقد بلغنا أن بعض مشايخ الطرق بالزوايا بتراب المملكة يعلنون أحيانا بأسواق عملهم بوقوع زيارة بزواياهم سعيا في اجتماع الأهالي هناك ، من دون استئذان ، و لما كان مثل هذا الإعلان من شانه أن تنشا عنه أمور تخل بالراحة ، فقد صدر الإذن لكم بالتعرض لمنع وقوع مثل هذا الإعلان إلا إذا وقعت المصادقة عليه من طرف المراقبة المدنية أو رئيس إدارة الأمور الأهلية بجهتكم ليمكنكم من اتخاذ ما يلزم من الاحتياطات في هذا الغرض و التنبيه على مشايخ الزوايا حتى لا يقع ما يخالف ذلك بالمستقبل .

---

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 100.

[2]- نفسه، ص 100.

ففي هذا الحد مازال التحجير محتشما ، يهم الزيارات غير المرخصة ، و يطلب الاستئذان في القيام بذلك ،و هي المرحلة الأولى من الإجراءات ، أما المرحلة الثانية فلم تتأخر عن المجئ حيث صدر أمر آخر مؤرخ في 9جانفي 1913م[1] يحجر تحجيرا تاما القيام بالزيارات التي تقع بهدف جمع الأموال، مع العلم أن السلطة الفرنسية قد بدأت في الاحتياط لهذا الإجراء منذ سنة 1893م ،بإصدار منشور 1 نوفمبر من نفس السنة و الذي يجبر مشائخ الطرق على عدم التنقل بدون رخصة من الحكومة مهما كان غرض هذا التنقل ، بل أكثر من ذلك أردفت الحكومة الفرنسية كل هذه القوانين بمناشير أخرى ، منها المنشور عدد 13 بتاريخ 24أوت 1921م، ومنشورا 1 نوفمبر 1934م.و الذي يخص الاسترخاص للشيوخ لتنقلاتهم بين تونس و الجزائر و العكس[2] .

نظرا لهذ الاهتمام الأهمية سياسية و الاقتصادية الذي منحته الإدارة الفرنسية تجاه تنقلات الشيوخ و الأتباع ،كانت وراءه أهمية سياسية و اقتصادية و عدة هواجس منها الاحتياط لتنقل الأخبار و الأفكار التي يمكن أن تخل بالأمن الفرنسي بالبلاد ، و منها السعي إلى تحجيم العلاقة الروحية التي تربط بين الشيوخ و أتباعهم كرصيد لسلطتهم ، و فك العلاقة الموجودة بين الأتباع و الطرق و المتمثلة في زيارات ، و هي تعتبر نظام جبائي مماثل ، و لهذا ما لا يخدم النظام الجبائي الفرنسي في البلاد .

ر غم الإلحاح الكبير الذي اتضح من قبل الإدارة الفرنسية في هذا الموضوع قد قابله تعنت كبير أيضا من طرف الشيوخ و الأتباع في عدم الامتثال لهذه القوانين ، و قد كان ذلك باستعمال طرق ملتوية للإفلات منها أو بالتصادم المباشر معها لذلك في 13 جوان 1924م، صدرت رسالة أخرى من الوزير الأكبر مصطفى دنقزلي موجهة إلى القياد و الخلفاء يقول فيها : ...قد بلغنا أن بعض مشايخ الزوايا لم يعملوا بمقتضى هذه التعليمات و أنهم يجمعون الزيارات بأنفسهم أو بواسطة أناس من أشياعهم و المراد أن تعملوا من جديد من يهمهم الأمر إن تلك الإعمال تجر له ما لا تحمد عقباه ، و متجهة أخرى، تشددون المراقبة على هؤلاء المشايخ [3].

[1]- العجيلي،المرجع السابق ، 100.
[2]- العجيلي ، نفسه ،ص 89.
[3]- لطيفة الأخضر ،المرجع السابق ، ص 99.

فهذا التذمر و التنديد الصادر عن الحكومة يدلان على جدية هذه المعركة الحقيقة التي رفض فيها شيخ الزوايا الاستسلام للأمر الواقع . فبقدر ما كان أرشيف الإدارة الفرنسية بتونس يعج بالمطالب القانونية لتنقل الأتباع لزيارة زواياهم أو لتنقل الشيوخ لزيارة أتباعهم بقدر ما عج هذا الأرشيف بما يدل على حالات للزيارات بدون رخصة أو بحالات يستعمل فيها أصحابها مبررات للتنقل اعتبرتها الإدارة الفرنسية مبررات واهية مثل التعلل بالتنقل من اجل الزواج بابنة العم المقيمة بالجزائر ، أو لترتيب بعض الأمور التي تهم الملاك.في حين أن الغرض الحقيقي يكون جمع الزيارات.

قد وصل الأمر أحيانا إلى حد التصادم المفتوح مثلما كان الحال مع مقدم الزاوية القادرية بنفطة محمد الرشيد الكبير و محمد السويسي مقدم زاوية الرحمانية بسوق الأربعاء [1]ومقدم الزاوية القادرية بسوق الأربعاء المسمى السنوسي بن يوسف ، حيث بعث المراقب المدني برسالة في 16 جوان 1913م إلى القايد هناك يشتكي فيها من عناد هذا الأخير في عدم الامتثال للأوامر الخاصة بالتنقل من أجل الزيارة ، فيقول : لقد ذهب هذا الشخص إلى الكاف بدون رخصة رغم الأوامر التي أعطته إياها ، و قد وجهت له توبيخات حادة و لكنه لا يبدو ممتثلا لأوامري ، و أكثر من ذلك فقد شتم شيخ المنطقة و هدده بالضرب معلنا أن مقدم الطريقة تعود لرئاسة الدائرة ، و بأنه لن يعترف بسلطة أعوان الحكومة . كما تعرض للزجر و للتوبيخ أفراد آخرون لتمردهم على هذه الإجراءات ، مثل مقدم الرحمانية بنفطة احمد بن عزوز الذي وقعدت تخطئة بخمسة و عشرين ريالا ، أو إيقاف مجموعة آتية من سوق هراس بالجزائر ، متكونة من مقدمين و من 16 فارسا و 3 راجلين و ذلك بمنطقة غار الدماء ، حيث كانوا ينوون زيارة الزاوية الرحمانية بالكاف.

[1]- العجيلي ،المرجع السابق ، ص 90.

و لم يكن الزجر بصفة عامة شديدا ، إلا أن المراقبة و الحصار كانا حديين ، لذلك نلاحظ أن المقاومة التي أظهرها شيوخ الطرق لهذه الإجراءات إلى منتصف العشرينات ، قد اندثرت في السنوات الموالية ، و هذا له دلالته الكاملة على انتصار السياسة الاستعمارية إضافة إلى التقهقر المتواصل لمكانة الطرق في المجتمع

1-4- المس بالأحباس

أما الوجه الأخر لخنق المؤسسات الطرقية فقد تمثل في المس باحباسها ، و قد أتى ذلك في إطار سياسة كاملة ترمي إلى ترسيخ الاستعمار الفلاحي استهدفت الاحباس العامة [1]، في مرحلة أولى ثم الأحباس الخاصة في مرحلة ثانية .

نظرا إلى أن أراضي الأحباس لها طابع ديني يمنع حلها عن طريق البيع أو عن طريق أي شكل أخر من التفويت ، و نظرا على أن التجربة الجزائرية التي تمثلت في الاستحواذ على هذه الأراضي بدون اخذ الاحتياطات القانونية المناسبة لذلك ،أنجر عنه عداء مفتوح للاستعمار من طرف القبائل[2] ،التجأت الإدارة الفرنسية إلى الحيلة التي مكنتها من تسوية القضية عن طريق القانون و بدون المس بالمشاعر الدينية للأهالي فقد وجدت في التشريع الإسلامي منفذا لفتح أراضي الاحباس للسياسة الفرنسية و ارتكزت في ذلك على عقد الإنزال الذي تصرفت في تأويله لضروريات القضية [3].

كما أن الانزال[4] قبل سنة 1885م، كان يقع من طرف القاضي المكلف بإصدار الأمر بالمزاد العلني ، و أحيان يتم الانزال بصفة نهائية إلا بعد بموافقة الباي إلا أن الإدارة الفرنسية التي تعلم ما تعود به هذه الوسيلة من فوائد ذات أهمية فأصدرت قانون ، فعملت على أن يصبح المكتري هو المالك الحقيقي و المالك الأصلي مالكا صوريا .

---

[1]- الأحباس العامة تطلق عليها عادة تسمية الأوقاف ، و هي تلك التي تحبس على مؤسسات ذات صبغة اجتماعية و خيرة ،و قد أصبح هذا النوع بتونس منضويا تحت إدارة خاصة تسمى إدارة الأوقاف ة و ذلك من سنة 1874 إلى مابعد الاستقلال ، حيث وقع حل الأوقاف ،و تعتبر أحباس الزوايا أحباسا عامة لا ينتفع بها شيخ الذي يعوضه على رأس الزاوية .

[2]- Mahjoubi Ali , Les origines du mouvement national tunisien 1904-1934., 1982, p 302.

[3]- المهجوبي Ibid, p 304

.

[4]- الإنزال هي عملية كراء مؤبد للعقار.

قد وقع ضبط إجراءات هذا العقد فيما يخص الأحباس العامة عن طريق أمر على أول مؤرخ في 18 أوت 1885م، و أستكملته بقانون 21 أكتوبر من نفس السنة ، و قانون 22جوان 1888م [1] ،أما المرجع الثالث في هذا الصدد ، فهو ذلك المؤرخ في 13 نوفمبر 1889م و الذي يجبر جمعية الأحباس بوضع 2000هكتار سنويا من الأراضي الخصبة على ذمة الدولة ، و هي أراض تابعة للأوقاف العامة و الهدف من ذلك هو طبعا توفير أقصى ما يمكن من الضمانات لنجاح الاستعمار الفلاحي و السيطرة التدريجية على الأراضي ، لكن لم تتأخر الإجراءات في الوصول إلى المس من الأوقاف الخاصة أيضا ، و رغم تحذير البشير صفر بصفته رئيس جمعية الأوقاف على هذه الإجراءات في تقريره للمقيم العام سنة 1903م، قائلا " ..إذا ما تقرر إلغاء الأوقاف الخاصة ، فسيحكم على سكان الأرياف الأهالي بالهجرة أو العبودية و بالتحول إلى عمال يعملون فوق الأرض التي أنبتتهم "[2].

هذا ما يؤكد بأن الإدارة الفرنسية كانت متمسكة بأهدافها الرامية إلى السيطرة على الأراضي و منحها للمعمرين ، و نتيجة لهذا أصدر الإدارة الفرنسية قانون 12أفريل 1913م، ينص على أن الحائزين على الأراضي تابعة للأوقاف الخاصة أو العامة و الذين يمكنهم أن يثبتوا استقرار أجدادهم على تلك الأراضي بموافقة جمعية الأوقاف أو بموافقة المنتفعين و المقدمين يمكن أن يتحصلوا عليها بطريق الإنزال[3] .

فالغاية هنا ليست التسوية القانونية للمنتفعين من الأهالي بقدر ما هي محاولة التعرف على الأراضي المقوفة و المشغولة بالفعل و تسخير الأراضي التي تبدوا شاغرة لفائدة المعمرين [4].و إن لم تمكننا الوثائق من حصر المساحات المضبوطة التي تحصل عليها الاستعمار على حساب الاحباس الخاصة و العامة ،و إلا أن بعض المعطيات الأخرى يمكن أن تدلنا على خطورة القضية من ذلك أن أراضي الأحباس تمثل حسب بعض التقديرات ربع أراضي الايالة [5]، أيضا أن عقارات أهم الطرق الدينية مع عقارات شيوخها و التي تمثل الأراضي جزءا هاما فيها.

---

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 102.

[2]- أحمد قصاب ، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956.، ترجمة حمادي الساحلي ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1986 ، ، ص 82.

[3]- أحمد القصاب ، المرجع السابق ، ص 82.أنظر العجيلي ، ص 104.

[4]- نفسه ، ص 82.

[5]- Ali Mahjoubi , op.cit. p 303.

أما تقرير هيئة العمل الفرنسية الإسلامية لشمال إفريقي حول نظام الملكية بتونس المؤرخ في 20 جويلية 1920م فيقول : " لقد رأينا أن أغلبية أراضي البيليك و الحباس العامة قد وضعت عن طريق إدارة الفلاحة على ذمة الاستعمار ، و أجبر المزارعون و الفلاحون التونسيون على مغادرتها ..و ها أننا نراهم و هم مطرودون من أراضي البيليك ، و مطرودون من أغلبية أراضي الأوقاف العامة ، مهددين بالطرد من الأحباس الخاصة و ذلك في الوقت الذي يوجدون فيه في الضيق .

لذلك كانت إجراءات المس بالاحباس الخاصة ، بعد الحرب العالمية الأولى ، بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس ، فوقعت مظاهرة أمام الإقامة العامة بتونس يوم 14 ماي 1920م، شاركت فيها كل الطبقات الاجتماعية ..و ترأسها أحمد الفورتي وطني و إسلامي معروف ، كما شارك فيها بعض شيوخ الزوايا [1] و هو أول تحرك مفتوح و مناهض للحكومة الفرنسية تشارك فيه هذه الفئة ، لأن مصالحا الحياتية قد وضعت في الميزان ، إضافة على انضمام الشيخين بشير البكري و مصطفى الباهي إلى الوفد الدستوري الأول الذي توجه يوم 6 جوان سنة 1920م، إلى باريس لعرض المطالب التونسية على البرلمان الفرنسي و حكومة الجمهورية هناك[2]. لكن ما لم تتفطن له الإدارة الفرنسية و هي تسطر هذه السياسة العنيفة و المخنقة للطرق الدينية ، و هو أن نتائج ذلك ستكون مساهمة فعالة في إفراغ هذه المؤسسات من محتواها إلى درجة ستجعل منها جثثا بلا روح

لذلك عندما أرادت هذه الإدارة الفرنسية استعمال الطرق بهدف مقدمة الوعي الوطني و الحركة الوطنية الصاعدة ، في الثلاثينات ، لم تقع أن في نفس الوقت الذي كانت فيه الطرق تختنق ، كان المجتمع ، بفعل التحولات التي أدخلها عليه الاستعمار في تمرير سياسته ، إضافة إلى أن في نفس الوقت الذي كانت فيه الطرق تختنق ، كان المجتمع ،، بفعل التحولات التي ادخلها عليه الاستعمار ، يدير ظهره رويدا رويدا عن المؤسسات التقليدية ، ليوجه أنظاره و لو بصفة متفاوتة و نسبية نحو فضاءات أخرى تبدو مستوعبة للعصر و لتحولاته أكثر من الأولى .

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 85.

[2]- Mahjoubi, op.cit. p 237.

و ستعبر هذه التغييرات الجوهرية التي بدأت تحصل في صلب المجتمع ، عن نفسها من خلال المعركة التي ستنفتح بين الطرق الدينية و النخبة لوطنية الجديدة ، ذلك أن هذه الطرق الدينية التي كانت تحتكر جزءا من الحياة السياسية و الاجتماعية ، بل و التي غالبا ما أصبحت منسجمة مع السياسة الفرنسية سيصطدم تخاذلها هذا إزاء القضية الوطنية بطرف ناشئ أولده المجتمع التونسي المتحول انطلاقا من العشرية الأولى ثم خاصة العشرية الثانية لهذا القرن .

2- مواقف الطرق الصوفية من الحماية الفرنسية على تونس:

كان شيوخ الطرق والزوايا تأثير كبير في نفوس السكان وهذا ما يفسر الخطورة التي كان يتمتعون بها دوما لدى النظام وبحكم الثراء الذي كانوا يتمتعون به من الضرائب التي يجمعونها من أنصارهم ،ونظرا لخضوعهم لسلطة الباي الذي له الحق في تعينهم كان هؤلاء الشيوخ قليلي الميول للعصيان ،ولذلك كانت السلطة تعول عليهم في مساعدتها على استتباب الأمن بين القبائل وتسليم المتمردين والعاصين كلما دعت الحاجة إلى ذلك [1] .

لقد كان هناك عناصر أخرى يدعون إلى الإسلام ويحضون بتقدير كبير في أواسط كان ، وكانوا يمثلون مختلف الطرق الدينية وكانت هذه الطرق قبل الحماية محكمة بكلة ،إلا حد أنها كانت تكون ما يشبه الأحزاب السياسية . ونظرا لما تمتاز به من دقة في التنظيم قد كانت بزواياها وكثيرة أعوانها بمثابة دويلات وسط الدولة ،لذلك خولت نفسها جمع الضرائب من إتباعها ،وقد ضمت البلاد التونسية أربع أطراف تحظى بأهمية خاصة ،وهي الطريقة القادرية والرحمانية في الشمال والتيجانية والسنوسية في الجنوب.وكانت القادرية تهيمن على الجهات المحيطة بالكاف [2] بينما كانت الرحمانية على شديدة الحضور في أوساط الفراشيش وماجر . إما الطريقة التجانية فقد سيطرت على الجنوب الغربي للايالة وتونس العاصمة وكانت العائلة الحاكمة من بين إتباعها ، ،بينما تزعمت التجانية الاتجاه الانتهازي القابل للهيمنة الفرنسية على تونس .

في الفترة التي دخلت فيها الجيوش الفرنسية لتونس ، كانت الطرق الصوفية على ما يبدو تمثل أهم الهيئات التي تتمتع بالنفوذ المادي و الأدبي هامين ، و قاعدة شعبية عريضة ، يمكن توظيفها كما فعلت بعض الطرق الصوفية في الجزائر.و بذلك يمكن القول بأن الطرق الصوفية كانت آنذاك القوة

[1]- قيناش ،أصول الحماية الفرنسية بتونس ،طبعة 1، باريس 1959،ص166.

[2]- لقد كان الشيخ قدور بالكاف شديد الارتباط بروا وهو عون القنصل الفرنسي بهذه المدينة كما وضع نفوذه الأدبي خدمة فرنسا لحمل سكان الكاف على عدم معارضة مدينتهم أثناء دخول الجيش الفرنسي للبلاد ،انظر أرشيف وزارة الخارجية بتونس مجلد 57 من روا الى روشتال ،الكاف ،24،25،26،افريل 1881م.

الوحيدة تقريبا في الايالة القادرة على التصدي للقوات الفرنسية باستنفار السكان و إعلان التعبئة العامة ، و تنظيم الجهاد رغم قلة الامكانيات في العتاد .

كما يصعب علينا تحديد المفاهيم لطرح إشكالية دور الطرق الصوفية ، حيث تفاوتت ردود فعل الطرق الدينية تجاه الإدارة الفرنسية ، كما لم تكن الطرق الصوفية تكرس الشعور الإسلام الذي يعد الحلقة الرابطة بين كل فئات المجتمع بقدر ما كانت تكرس لواقع عام ، حيث يكون للجانب الدنيوي نصيبا وافرا ، و نجد الطرق الصوفية نفسها كمؤسسات دينية منظمة لقبائل ، خاصة بدورها بكل قوة لسياسة الاستعمارية.

2-1 –الطرق المتواطئة مع فرنسا :

نقصد بهم أولائك الذين سهلوا أو ساهموا بطريقة أو بأخرى في تقديم يد المساعدة للإدارة الفرنسية على فرض سيطرتها على التراب االتونسي . و من هذا المنطلق ، يبدوا أن زاوية القادرية بالكاف قد لعبت دورا هاما في تسهيل استيلاء الغزاة الفرنسيين على المدينة .

مما يحملنا عل هذا الرأي انه من جهة بلغ إلى علم الحاكم العام للجزائر تقرير مفاده أن حالة من التململ بدأت تظهر حول الكاف ، و أن الأعراب أخذوا يقتنون كميات هامة من البارود استعدادا للجهاد المقدس ..[1] ، و من جهة ثانية وقع بعد عشر أيام التخلي نهائيا عن فكرة المقاومة ، و تكون وفد لتبليغ ذلك الموقف إلى قائد القوات الفرنسية [2]

قد يعود موقف التخلي على فكرة الاستعداد لخوض المقاومة المسلحة إلى الكثير من التساؤلات . إن ذلك التراجع عن التفكير في المقاومة و الصمود ، و فتح أبواب مدينة الكاف للقوات الفرنسية قد يعود إلى حد ما إلى دور سيدي قدور الذي كان طيلة شهر افريل من سنة 1881م، أي قبل معاهدة باردو على اتصال وثيق بالعون القنصلي الفرنسي روا حيث راسله أي سيدي قدور و هو شيخ زاوية القادرية بمدينة الكاف ، و ذلك منذ الدقائق الأولى لاقترابهم من الحدود التونسية مثلما يشهد على ذلك هذا التلغراف الأول لروا بتاريخ 23 افريل 1881م " إن الشيخ قدور مستعد إلى ملاقاة الفيلق و الجنرال لوجيرو و أظن أن هذا المسعى ستكون له نتائج سعيدة ، و إن ليس هناك رأي أصوب ، فسأسلم سي قدور كلمة السر . مستفسرا إياه عن الدور

[1] -العجيلي ، المرجع السابق ص 115.
[2] - نفسه، ص 116.

الذي يمكن له أن يلعبه ، فأشار عليه "بأن يعمل ما في وسعه للحفاظ على تلك الصورة الحسنة التي لديه عنه .."[1]على حد قوله.

ثم لم يلبث سيدي قدور في نفس ذلك اليوم ،ففي يوم 24 افريل 1881 أن علم روا أنه على استعداد للذهاب لمقابلة اللواء لوجيروا قائد القوات الفرنسية للإعراب له عن ولائه ، و هي فكرة حبذها روا ، و أعتقد بأنها ستكن لها نتائج حسنة [2]حسب زعمه ، فيقول روا في تلغرافه إلى روستان " .. ها أنا الشيخ قدور يكتب لي ليسألني عما يجب القيام به ، و قد أجبته باللا مجال للتخوف و بأنني أريد منه الالتزام بالمثابرة في حسن سلوكه تجاهنا . أما يوم 25 أفريل 1881م ، فيبعث روا بتلغراف آخر ، يخبر فيه قنصله بأن الشيخ قدور بعث على ديارهم بكل العرب الذين نزلوا بزاويته ، " فها أن أصدقاءنا يتحركون و ها ان علي بن عيسى و قد يئس من إمكانية المقاومة يجدد مساعيه في الاستسلام إلينا " .

يبدوا أن الشيخ قدور قد أقنع بالرجوع على أعقابهم مبررا ذلك أنه رأى في منامه سيدي عبد القادر الجيلاني نفسه يقود فيلق الفرنسيين نحو الكاف ، و هو بذلك يكون قد أقنعهم بشرعية استسلامهم إن لم يكن أقنعهم بشرعية التدخل الفرنسي في مدينتهم ، و هكذا سقطت مدينة الكاف في أيدي الفرنسيين من يوم 26 افريل 1881م .و بهذا يكون سيدي قدور لعب الدور الجوهري في سقوط مدينة الكاف في أيدي الفرنسيين ، و قد يرجع هذا الموقف الناتج عن سيدي قدور إلى صداقته بالمساعد القنصلي روا ، وبإبلاغها لروستان[3] أبدى موافقته عليها ، و على كل المساعي التي من شأنها ان تحول دون إراقة دماء لا طائل من ورائها ...[4] غير أن اللواء المتصلب لوجيرو رفض مقابلة أي كان ...[5] لكن رغم كل ذلك ، فإن سيدي قدور وصل به الأمر إلى إعطاء الأوامر للذين جاؤوا إلى زاويته بالعودة من حيث أتوا ، مما جعل روا يستحسن ذلك قائلا : تحرك أصدقاؤنا [6].

[1]- العجيلي، المرجع السابق، ص 116.
[2] - نفسه، ص 116.
[3]- تيودور روسطون ولد سنة 1833 مايكس أون بروفانس عين قنصلا عاما لفرنسا بتونس سنة 1874، ثم أول مقيم عام لفرنسا بتونس سنة 1881 ، و سنة 1882 عين سفيرا لبلاده بواشنطن، ثم بمدريد سنة 1890 ، توفي بباريس سنة 1906 .
[4]- نفسه ، ص 116.
[5]- Mahjoubi et Karoui (H) ,Quand le soleil s’est levé à l’Ouest, tunisie 1881, Imperlalisme et rsistance , tunis, ceres production , 1983, p 78.
[6]- العجيلي ، المرجع السابق ،ص 117.

فمن خلال ما سبق يمكننا أن نحكم على القول بان سيدي قدور كان وراء التخلي عن فكرة الجهاد ، مستعملا في ذلك نفوذه المادي و الروحي بالمنطقة ، و هذا بالإضافة إلى دور التخذيلي الذي قام به قايد الكاف و بعض أعيانها و الذي لم يمكننا تحديد أهميته . لتلك الاعتبارات و غيرها ، تم سقوط مدينة الكاف في أيدي الفرنسيين [1] .

كما أن هذا الدور الذي لعبه سيدي قدور قد يكون نتيجة العلاقة المتميزة التي كانت تربطه بورا ، و هي علاقة كانت سببا في حماية هذا الأخير من التهديدات بالموت الصادرة عن الطريقة الرحمانية بالكاف .و هذا ما يبين أهم الإشارات المتعلقة بموقف الطريقة القادرية بزاوية الكاف من دخول الجيش الفرنسي إلى تونس [2].

كما أنه لا بد من الإشارة إلى موقف الشيخ محمد بن شعبان وهو شيخ مشايخ الطريقة القادرية و إمام جامع باردو آنذاك ، قد ورد ذكره ضمن الذين نسقوا مع الاحتلال الفرنسي ، حيث شوهد يرحب بالقوات الفرنسية عند دخولها إلى تونس ، و قد يفسر موقفه ذلك بالخطة الرسمية التي كان يشغلها آنذاك حيث قد يكون الباي طلب منه ذلك [3] .

لكن هل أن تلك المواقف السالفة الذكر من دخول الجيش الفرنسي إلى البلاد التونسية كانت صادرة عن بعض مشائخ الطريقة القادرية وحدها على احتلال مدينة الكاف ، فإن الدور الذي لعبه سيدي قدور حسب الوثائق التي أطلعنا عليها يبدوا انه الوحيد منوعه و في حجمه . لكن رغم ذلك توجد دلائل تشير إلى أن هناك مشائخ زوايا طرقية أخرى كانت لهم مواقف و ممارسات لا تخلو من أهمية .

أن موقف زاوية القادرية بمدينة الكاف لا تعني أنها تمثل باقي زوايا الطريقة القادرية في التراب التونسي لانعدام الأدلة في حدود ما أطلعنا عليه ، إلا أنه يمكن أخذ ذلك الموقف من المواقف التي تحسب لطريقة القادرية لأنها تعد من الزوايا الأم لطريقة في تونس و كذلك للأهمية و المكانة و المنزلة و القيمة التي تتمتع بها ،و التي تحتلها الزاوية بالكاف ، كما مر بنا ليس على مستوى الطريقة بالبلاد و التي تمثل فيها تلك الزاوية احد مراكز نفوذها الروحي فحسب و إنما على مستوى الطرق الصوفية بالبلاد .

---

[1]- العجيلي ،المرجع السابق ، ص 117.

[2]- FALLOT , op cit , p7.

[3]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 118.

كما أن موقف الطريقة القادرية في تونس يختلف على موقف الطريقة القادرية بالجزائر ، التي كانت سباقة في تنظيم العمل المسلح و إعلان الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي ، إذ كانت مصدر الكثير من الثورات و المقاومات الشعبية مثل الشيخ محي الدين الذي حمل راية الجهاد ويحملها بعده ابنه الأمير عبد القادر، وكان من أبرز المجاهدين في جيش الأمير عبد القادر سيدي محمد بن علال بن الولي الصالح سيدي مبارك دفين القليعة وشيخ زاويتها، الذي تولى قيادة الجيوش وخاض كبريات المعارك في نواحي وهران إلى أن سقط شهيدا في معركة وقطعت رأسه ووضعت في حراب من جلد وأرسلت إلى مريديه وأتباعه. و كذلك ثورة بن ناصر بن شهرة من الطريقة القادرية، بدأ يعد للثورة سنة 1846م اعتقل سنة 1851م، ووضع تحت الإقامة الجبرية رفقة عدد كبير من أتباعه من رجال الأرباع في محتشد قريبا من " بوغار". قال عنه الضابط الفرنسي " لويس رين": "كان ابن ناصر بن شهرة الملاح الحقيقي للصحراء".

فيما يتعلق بموقف الطريقة التيجانية فإنه يمكن نستخلصه من خلال مواقف بعض شيوخها ، و خاصة زوايا الأم لطريقة التيجانية في تونس ، و من هنا نجد المنوبي العمراني[1] شيخ زاوية الطريقة التجانية ببوعرادة فقد أوضح في رسالة له إلى وزير الخارجية الفرنسية بباريس أنه في بداية الاحتلال استقبل الجيش الفرنسي ، و كان دليله في المنطقة موصيا إياه بالقبائل خيرا ..، كما أوصى القبائل بملازمة الهدوء و الامتثال للنفوذ الفرنسي ، و بذلك عرف كيف يتجنب إراقة الدماء غالية عليه ، و كيف يسهل مهمة الإدارة الفرنسية على حد قوله[2].

لقد لعبت الزوايا التيجانية في معظمها دورا مساندا إبان فرض الحماية الرنسية على تونس عام 1881 ، و هذا الموقف أعلن عنه شيخ الزاوية التيجانية ببعراد في رسالة وجهها إلأى وزير الخرجية الفرنسية بباريس ، فذكر له أنه استقبل الجيش الفرنسي و كان دليله في المنطقة موصيا إيا بالقبائل خيرا ن كما وصى القبائل بملازمة الهدوء و الامتثال للنفوذ الفرنسي ، و بذلك عرف كيف يجنب إراقة دماء غالية و يسهل مهمة السلطة الفرنسية على حد تعبيره [3].

---

[1]- المنوبي بن الشيخ سيدي العمراني التيجاني الشريف ، كان مقدما للطريقة التيجانية بزاويتها في هشير بوقفطيس بجهة بوعرادة المعروفة بزاوية سيدي صالح التيجاني توفي سنة 1890م

[2]- العجيلي، المرجع السابق ، ص 119

[3]- العجيلي، نفسه ، ص 164.

أثناء زيارة محمد الصغير بن الحاج علي الخليفة الأكبر للتجانية إلى تونس سنة 1885 م ، سارعت السلطة الفرنسية إلى استغلال و توظيف هذه الزيارة سياسيا و لإخماد المجتمع التونسي ، حيث صرح المقيم العام بول كمبون في أعقاب هذه الزيارة " إن التجانية بالنسبة لفرنسا أداة من الطراز الأول للصمود في وجه دعاية الجامعة الإسلامية لأن أعداءها هم الأعداء الطبيعيون للطريقة السنوسية ، و أن الطريقة التيجانية كان موقف الولاء و التأييد الذي كان لها بالجزائر" [1]. و لعل هذا القول يحمل إشارة على الخطر الذي كان يهدد الوجود الفرنسي انطلاق من الطريقة السنوسية.

لم تتوقف الرسائل التوجهية من الشيوخ الزوايا الطريقة التجانية بتماسين إلى شيوخ زوايا الطريقة بتونس ، التي تنص على استقرار الأوضاع و تهدئة النفوس ، والتعايش مع الإدارة الفرنسية ، و خلال الفترة 1915- 1916[2] التي شهدت اضطرابات بالجنوبي التونسي ، حيث رمت الطريقة التجانية بكل ثقلها لإستقرار الأوضاع، و تنيظيم تجمعات لأتباع الطريقة يتلون عليهم المراسلات الصادرة من الزاوية المركزية بتماسين.

كما يمكن في نفس السياق الاستشهاد بزاوية باب منارة بالحاضرة التي ساهمت على ما يبدو في تهدئة الخواطر ، حتى أن القائد سيون مساعد الملحق العسكري لدى بول كمبون[3] المقيم العام آنذاك كان يشارك في المائدة التي تنصب بالزاوية كل يوم جمعة ..[4]

هذا لا يعني أنها لا توجد زوايا تيجانية أخرى لها مواقف من الغزو الفرنسي مغايرة لمواقف الزوايا التي ذكرتها . حيث أشار المراقب المدني بالكاف سنة 1896م، إلى أن الطريقة التيجانية بالجهة ، إثارة أيام الاحتلال الفرنسي قبائل ورتان و الخمامسة .

1- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 143.

2- نفسه ، ص 163.

3- بول كمبون ولد بباريس سنة 1843 ، و عين رئيس ديوان جيل فيري سنة 1870، ثم عين مقيم عام على تونس سنة 1882و توفي بباريس سنة 1924 م.

4- لعجيلي ، المرجع السابق ، ص 119

فما كان من العقيد دولاروك[1] إلا أن زحف عليها لإخضاعها ، و حملها على دفع غرامة حربية ، مما أدى إلى انتساب الأمن ، و لكن بمجرد رحليه عادت الاضطرابات ، و هذا في حين أن زاوية التيجانية بالرأس قد أعربت عن ولائها و خضوعها [2]

الملاحظ أن هذا الموقف المناهض للاستعمار من الزوايا ثانوية في أهميتها ، و إن كان لا ينسجم مع الخط العام الذي سارت عليه الطريقة التيجانية ككل سواء في الجزائر أو في تونس لم يكن له تأثير في مواقف التأييد و الولاء الصادرة عن زوايا الهامة. كما نتطرق في هذا الموضوع إلى الطرق الصوفية التي ساهمت بطريقة أو بأخرى في بسط السياسة الفرنسية . و إعلان ولائها للإدارة الفرنسية في الكثير من التظاهرات ، و نقصد بها تلك التي اتضح ولاؤها للاستعمار في العديد من المناسبات كما تعاملت معه إيجابا في العديد من القضايا كما سنرى فيما يلي .و على رأس هذا الصنف من الطرق الصوفية في الايالة نجد زاوية القادرية بالكاف التي كانت تربط شيخها علاقات وطيدة بروا ، تكشف المراسلات بينها عن بعض الجوانب الخصوصية فيها :

من ذلك إعفاء دواب سيدي قدور المذكور من السخرة و هو إجراء بشره به روا ، و طلب منه أن لا يعلم به أحدا ، و حيث أنه من الأمور الخصوصية التي يتحتم كتمانها على حد قوله . أما خليفته أحمد قدور فقد وصل تعامله مع الاستعمار الفرنسي في ميدان الفلاحة ، حيث كان روقارو محافظ الحكومة بالكاف شريكا فلاحيا له[3] . بل وصل به الأمر إلى تأليب الإدارة الفرنسية ضد المواطنين يكشف مواقعهم ، و إعفاء أسماء البعض منهم حتى يسهل ضربهم .

هي نفس الممارسات التي قام بها المنوبي بن الشيخ صالح شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة في العديد من المناسبات كما سيأتي في هذا الفصل .فلقد أوضع هذا الأخير أن المعمرين الفرنسيين الأوائل بتونس أمثال تان ، و نابليون ناي و آخرين كثيرين بجهة بوعرادة و دعم زاويته و حمايتها[4] .كما لعب دورا أساسيا حسب ما ذكره هو نفسه في الحد من التحركات المضادة التي قام بها الحزب الحر الدستوري التونسي ضد الإصلاحات سنة 1922 [5].

---

[1]- تقلد العديد من المسؤليات سنة 1855 الي غاية 1861 إلى تونس لقيادة قصبة الكاف ، و عين قائد لهيئة الاركان العامة 1886 توفي بباردو سنة 1903

[2]- العجيلي ، مرجع السابق ، ص 120

[3]- نفسه ، ص 153 .

[4]- نفسه، ص 153

[5]- توفيق المدني ، حياة كفاح ، الجزء الأول في تونس 1905- 1925 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1976، ص 173.

لقد عملت الإدارة الفرنسية على التمكين لمشائخ الزوايا الطريقة الموالين لها ليس بالامتيازات الممنوحة لهم فحسب بل كذلك بمنحهم سلطات واسعة و نفوذ مطلق تجسم بالخصوص في شيخ زاوية القادرية بالكاف. فقد كان يشيع انه من القانون في حرز حريز ، و أن له علاقات متينة ..مع بعض رجال الحكومة تمكنه من القلب و الإبدال و نقله الموظفين . و لعل هذا ما يفسر تجاوزاته العديدة التي لم تقتصر على النزاعات العقارية التي أثارها بمنطقة الكاف ، بل وصلت أحيانا حد الاعتداء على الأشخاص .

كما تجلى تمكين الإدارة الفرنسية للمشايخ الموالين لها مثل ،شيخ زاوية التيجانية ببوعرادة و الذي سعيا وراء منحه الخطة المذكورة سانده في ذلك رئيس الغرفة الفلاحية الفرنسية ، و نائب رئيس المجلس الكبير للإيالة ، و رئيس نقابة المعمرين لفرنسيين الذي أمضى صحبة مجموعة من المعمرين عريضة مساندة هذا إلى جانب مساندة الصحافة الفرنسية له أيضا ، فهذه الأمثلة توضح إلى حد ما ، مدى تعامل بعض مشايخ الطرق الصوفية بالايالة مع الاستعمار ، و التمكين له من الاستيطان ، و إلا أن ذلك لا ينطبق عليهم كلهم[1].

إذا أشرنا إلى موقف الطريقة القادرية و التجانية ، فإننا نجد هناك مشايخ الطرق قاوموا دخول الجيش الفرنسي ، و ناضلت بأتم معنى الكلمة ، نظمت الصفوف وعبأت و أعدت العدة للخوض في الجهاد . و هذا ما نجد في شخصية علي بن عيسى شيخ زاوية الطريقة الرحمانية بالكاف الذي سبق و أن قرر قتل عون القنصلي روا بهذه المدينة ، و قد شجع الأهالي على الوقوف في وجه القوات الفرنسية الداهمة ، و لما اقتربت منها [2].كما أن احمد بن عبد المالك [3] شيخ زاوية الرحمانية بأولاد عون قد برهن عن عداوته للاستعمار سنة 1881 م لذلك أقصاه الجنرال فيلبار إلى تونس ، و لم يعف عنه إلا سنة 1888م [4].

---

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 154.

[2]- FALLOT , op cit,p 7.

[3]- أحمد بن عبد المالك شيخ زاوية الطريقة الرحمانية بالشط ، الواقعة تقريبا 16 كلم غرب تبرسق ، ولد سنة و 1821تقريبا استمد نفوذه من مصاهرته للشيخ مصطفى بن عزوز شيخ الرحمانية بالجريد

[4] العجيلي ، المرجع السابق ، ص 121

أما محمد بن إبراهيم بن عبد المالك أحد رجالات زاوية سيدي عبد الملك السابق الذكر فد قاوم انتصاب الحماية الفرنسية وواجه قواتها قرب الفحص ، و لما انهزم هرب إلى جبل السرج قرب الوسلاتية من ولاية القيروان ، و منه إلى طرابلس ، حيث استقر إلى أن توفي سنة 1901م [1] . كما سجلت محاولة لمقاومة الاستعمار الفرنسي في أيامه الأولى من قبل معمر الزاير شيخ زاوية الرحمانية بكدية الحلفاء بماجر إذ انه وقف في وجه الطابور الذي يقوده فورجمول لكنه لم يلبث أن قر في طرابلس التي عاد منها سنة 1882 م خلفه أخوه الأصغر عبد الحفيظ فكافح بدوره ضد الاستعمار ، لكنه بعد القتال هدأ و سكن.

من خلال هذه الإشارات ، تبين أن بعض زوايا الطريقة الرحمانية كانت من أبرز زوايا الطرق على مستوى البلاد التي وقفت في وجه الغزو الفرنسي ، لكن بعض مواقفها لم تخل أحيانا من التردد و التذبذب ، مما قد يوحي بأنها ليست صادرة عن قناعات ثابتة ، و إنما ناتجة عن معطيات و ظروف متحولة، و ربما كذلك عن اجتهادات فردية و معزولة ، خالية على ما يبدو من محاولات التنسيق على مستوى البلاد .

من ذلك أن علي بن عيسى المذكور قد تأرجح بين أربعة مواقف في يوم واحد و هو ما تؤكده البرقيات الصادرة عن روا إلى القنصلية العامة . فالأولى منها تفيد انه في صباح 25 افريل 1881م، قد حرض الأهالي ضد الغزاة الفرنسيين ، حوالي منتصف النهار أعلن عن استعداده للخضوع .أما البرقية الثانية ،فتفيد أن الرجل قد عاد يعلن الجهاد المقدس ضد العدوان و ذلك على الساعة الواحد بعد الزوال من نفس اليوم. و في المساء ، وبعد ما شتت سيدي قدور الأهالي الذين احتشدوا بزاويته أحبطت عزائمه فجدد قبوله بالخضوع ، و لتفسير تردد مواقف علي بن عيسى لابد من تتبع البرقيات المتعددة بين روا و القنصلية العامة ، يتبين وجود نية الجهاد عند علي بن عيسى ، لكنها بقيت على ما يبدوا في مستوى الإضمار ، و لم تتحول إلي عمل فعلي. و قد يعود ذلك إلى علاقة التنافس بين زاويتي القادرية و الرحمانية بالكاف على تزعم المدينة و السيطرة على سكانها و الأمر الذي يؤكد ذلك حرص سيدي قدور على حماية روا في حين يصر علي بن عيسى على قتله ، و هذا ما رأيناه في تجربة الجزائر ، حين تحول الاختلاف بين الطريقة القادرية – الأمير عبد القادر – و الطريقة التيجانية

[1]- عبد القادر الهاني ، الدور الاجتماعي و الثقافي للزوايا بجهة سليانة ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس وزارة الشؤون الثقافية و الأخبار ، السنة 8 ، العدد 26 ، جوان 1983 ، ص 115-119.

إلى دخول في صراع مسلح. قد يكون علي بن عيسى تراجع عن مواقف التصدي لأنه تيقن بعد أن فرق سيدي قدور جموع الأهالي بزاويته من استحالة القيام بأي نضالي مهما كان حجمه

و خلاصة القول ، أن الرحمانية بالكاف و إن اختلفت مع القادرية بها في المواقف إزاء الغزو فإن الطريقة الرحمانية التي كانت وراء العديد من الانتفاضات بالجزائر لم تقم ببادرة نضال في حجم قوتها الاقتصادية و الروحية و البشرية التي كانت تتمتع بها في البلاد التونسية في الفترة التي ندرسها ، و هذا ما رأيناه في تجربة الجزائر ، حين تحول الاختلاف بين الطريقة القادرية – الأمير عبد القادر – و الطريقة التيجانية إلى دخول في صراع مسلح . فواضح من خلال هذه الأمثلة استفادت السياسة الفرنسية من الدور الذي لعبته بعض الطرق الصوفية في تسكين و تهدئة الخواطر للحيلولة دون فعل قد تعرقل ، أو على الأقل تؤخر الاستيلاء السريع للقوات الفرنسية على البلاد.

من خلال ما أشرنا إليه في العنصر مواقف الطرق الصوفية من دخول الاستعمار الفرنسي للإيالة التونسية سنة 1881م فقط ، فإننا سنحاول فيما يلي توضيح مواقفها منه أثناء التواجد الفرنسي بها .

كما أن المتتبع للأحداث و مواقف الطرق الصوفية ، فإنه يجدها متباينة و مختلفة سواء داخل الطريقة الواحدة ، حيث هناك من الزوايا كانت مناهضة للوجود الفرنسي، و هناك من كان لها دور في تقديم يد المساعدة رغم الانتماء لطريقة الواحدة ،و هناك كذلك اختلاف في مواقف الطرق الصوفية تجاه السياسة الفرنسية ، حيث قد يكون الموقف راجع إلى الإيمان بمبدأ الجهاد ، أو الاتخاذ بمبدأ الانتهازية ، أو يرجع إلى الصراع بين الطرق الصوفية مثل الطريقة القادرية و الرحمانية مثلا ، و من اجل المنافسة لسيطرة على القاعدة الشعبية ، و هذا الصدد يمكن تقسيم موقف الطرق الصوفية إلى قسمين :

2-2- الطرق المنهاضة لفرنسا :

نقصد بها تلك التي لم تتواطأ مع الاستعمار فحسب بل حافظت على شيء من الاستقلالية تجاهه ، فنجت بذلك من الانزلاق في ما وقعت فيه بعض الطرق السالفة الذكر ، و ضمن هذا الصنف من الطرق نجد بعض الزوايا الطريقة الرحمانية .من ذلك أن حسونة بن أحمد بن عبد المالك شيخ الطريقة الرحمانية بأولاد عون كان قد عمل حسب ما أورده المراقب المدني بمكثر على عرقلة المشاورات المتعلقة بمشروع سد وادي بوزافة لري سهل سليانة [1] . و رغم أن معارضته تلك قد تكون نابعة من رغبته في صيانة مصالحه بالمنطقة من كل ما من شأنه أن ينافسها أو يهددها ، فإن موقفه ذلك يتناقض أساسا مع المواقف السابقة الذكر لكل من أحمد قدور و المنوبي التجاني .على أن من أهم التحركات التي سجلت في الايالة ضد الوجود الفرنسي بها كانت انتفاضة الفراشيش سنة 1906م ، و أحداث الجنوب سنة 1915م-1916م .

2-2-1-ثورة الفراشيش بمراقبة تالة :

لقد هزت وسط غرب الايالة في آخر فترة المقيم العام بيشون[2] ، وكان الشخصية البارزة وراء هذه الأحداث المسمى عمر بن عثمان [3] و لد بمقاطعة سوق اهراس بالجزائر من قبيلة أولاد سيدي عبيد التي يتوزع أفرادها على ناحيتي الحدود التونسية الجزائرية ، و قد وصل إلى تونس قبل ثلاثة أشهر من هذه الأحداث حيث استقر في المرحلة الأولى عند أولاد غانم من قيادة تاجروين ثم مر عند الزغالمة ثم من هناك إلى الفراشيش بالقصرين كما انه يعد أحد المعروفين بانتمائه إلى الطريقة الرحمانية .

لقد اندلعت أحداثها يوم الجمعة 26 أفريل 1906م بهجوم جمع من الفراشيش على المزرعة المعروفة ببرج الشعانبي[4] و التابعة لأحد المعمرين الفرنسيين الذي يدعى " سال " و هناك قتل هؤلاء أمه و أخاه، في حين جرح خادمها ، أما سال نجا من الموت بسبب غيابه عن المنطقة ثم نهبوا بيته .و لم يكتفي عمر بن عثمان بل واصل سيره نحو ضيعة معمر فرنسي يدعى بارتران ، فقتلوا خادمه

[1]- العجيلي ، المرجع السابق، 155.
[2]- ستيفان ولد سنة 1857 تقلد قنصل عام 1884 ، و وزير مفوض في سان دومنيق و مقيما عاما بتونس 1907 ثم تقلد وزير خارجية الفرنسية
[3]- و هناك من يقول أنه ولد بولاية قالمة سنة 1881 وصل الى فوسانة بجهة القصرين ، واتخذه أهلها واليا صالحا .
[4]- مدينة تقع بالقرب من القصرين على بعد عشرة كلم و تسمى ببولعابة حاليا

الايطالي الجنسية و فلت هو و أخته و ثلاثة من الفرنسيين الآخرين من الموت لامتثالهم لأوامر المجموعة بذكر الشهادة كدليل على إسلامهم .ثم تحولت مجموعة المهاجمين في مرحلة ثانية و عددهم حسب ما جاء في ملف القضية يتراوح بين خمسة و عشرين و ثلاثين شخصا إلى منجم عين حمودة الذي يبعد عن مكان الحادث حوالي كيلومتر و نصف يعمل به عدد من العمال ، و أغرم رئيسهم على النطق بالشهادتين .

لم يكتف الثائرون بذلك ، بل قرروا مهاجمة تالة في اليوم الموالي 27 أفريل 1906م، حيث توجه عشرات الأشخاص نحو تالة على رأسهم عمر بن عثمان ، و قصدوا مركز المراقبة المدنية و هناك واجههم رصاص أربعين متطوعا بعث بهم مدير منجم القلعة الجرداء "لابورت " لنجدة المراقبة المدنية ، فسقط منهم أثنا عشر قتيلا ، و مقبرتهم بتالة تعرف بحفرة الاثني عشر [1] هذا في حين جرح عدد آخر ، و هرب البقية بالفرار ، و لكن الجيش طاردهم ، و استطاعت السلطة الفرنسية بعد أيام أن تقدم تسعة و خمسين متهما وجهت لهم مختلفة التهم، كالقتل ، و محاولته ، و المشاركة فيه ، و مسك السلاح ، و استعمال العنف و مثلوا أمام المحكمة الجناحية بسوسة يوم 22 نوفمبر 1906م ، ثم عقبت القضية من طرف النيابة العامة إلى دائرة الاتهامات بالجزائر ، و صدرت ضدهم أحكام مختلفة [2]. و تلك هي أطوار و مراحل انتفاضة مراقبة تالة سنة 1906م ، ضد الوجود الاستعماري في منطقة الفراشيش ، بعد حوالي ربع قرن من دخوله البلاد ، و التي تحدث عنها حوالي خمسة مئة جريدة آنذاك [3].

إذا تمعنا في دور الطرق الصوفية في هذه الأحداث ،فإننا نجد لتلك الأحداث مبرراتها بالعوامل الظرفية الطبيعية و الاقتصادية التي كانت عليها تلك المنطقة المنطقة سنة 1906 م ، حيث كان للموقع الجغرافي لكل من فوسانة المكان الذي أنطلق منه الثائرون وبولعابة المنطقة التي كانت مسرحا لأحداث 1906م، محددا لنوعية المناخ المسيطر عليهما و بالتالي لطبيعة نشاطها الاقتصادي .

ذلك أن فوسانة تشكل حوضا بنيويا بين هضبة زلفان ، و هضبة بودرياس و بوشبكة ، يغطي أرضها الصلصال الرملي و الارماسية و الحلفاء ، مما يجعل زراعة الحبوب بها غير مضمونة

---

[1]- المرزوقي ، دماء على الحدود ، ص 21-22 .

[2]- المرزوقي نفس المرجع ، ص 18-26 .

[3]- Timoumi , op.cit , p 325 .

المردود ، فهي بذلك لا تصلح إلا لتربية الماشية [1]. أما بولعابة فهي عبارة عن ممر ضيق جدا يسمى خنقة الجباس أو فم السمكة ، يفصل بين جبل سمامة و جبل الشعانبي ، و يشكل بالتالي همزة وصل بين فوسانة و القصرين ، وهو معبر يعبره وادي الحطب .

فلا عجب تبعا لهذه التضاريس أن يكون مناخ هذه يتسم دوما بالقساوة و الشدة ، و خاصة في السنوات التي سبقت أحداث سنة 1906م ، حيث لا يكاد شتاء يمر دون أن تعرف المنطقة عواصف ثلجية ، مما يجعلا تتجمد ما بين الخمسة عشر يوما و الشهر في السنة ، و من السنوات التي نزلت فيها الثلوج سنة 1905م المسماة العام لبيض ، لكثرة ما نزل بها من ثلوج ، و خاصة سنة 1906م التي وصلت درجات الحرارة فيها خلال شهر فيفري إلى ما تحت الصفر طيلة عشر أيام [2].

كما تساقطت في تلك السنة الثلوج بتالة طيلة عشر أيام .كما تساقطت في تلك السنة الثلوج بتالة طيلة خمسة أيام متتالية ووصل ارتفاعها إلى مرتين و نصف ، وانجر عن ذلك تحطيم خيوط التلغراف بين مكثر و الكاف ، و بين الكاف و تالة التي بقيت ثمانة أيام معزولة عن بقية أنحاء البلاد. و هو ما تسبب في نقص تموين السكان الذين أوشكوا أن يموتوا جوعا ، علما و أن لإقامة الأسواق كانت مستحيلة ، إلى أن تالة لم تقم سوقها من ثلاث إلى أربعة و عشرين فيفري 1906م .لقد تسببت كل تلك العوامل المناخية في أضرار لحقت بالفلاحة و كذلك بالثروة الحيوانية المصدر الأساسي لحياة الأهالي هناك حيث وصلت نسبة الوفيات إلى ستين بالمئة ، مما تسبب في تدهور أثمانها و ارتفاع أسعار الحبوب ، و بالتالي في تفقير السكان [3].

لقد جاءت كل تلك العوامل الظرفية لتضاف إلى أسباب هيكلية مزمنة ، قواها تغلغل المعمرين بالمنطقة ، و هو تغلغل وصل سنة 1906م ،إلى وضع أصبح انفجاره لا يحتمل التأخير . ذلك أن الاستيلاء المعمرين على الأراضي خاصة الخصبة و السقوية كهنشير القصرين بالإضافة إلى استبدادهم بالسكان ،و أثقل كواهلهم بالغرامات أدى إلى انحصار الأهالي في مساحات ليست ضيقة فحسب بالنسبة إلى عددهم و إنما كذلك فقيرة التربة ، ظنينة العطاء لهم و لمواشيهم .

لقد أدى انعدام التوازن بين الأرض و الرأسمالية البشري إلى نقمة ألأهالي على الذين نافسوهم في جودهم ، و حاولوا دون انتفاعهم و تصرفهم في أملاكهم ، و هي نقمة زادها سكوت السلطة

[1] - Monchicourt, La réglon du haut-Tell , p 143.

[2] -Timoumi , op.cit , p61.

[3] -Timoumi , Ibd , p172-175.

الرسمية رغم تعدد شكايات المتضررين المطالبين بإنصافهم حدة و عرف عمر بن عثمان كيف يوظفها . فإن مهدت الأسباب الهيكلية و العوامل الظرفية السابقة الذكر لإيجاد حالة من الأشياء ، فإن عمر بن عثمان قد عمل على توسيع الهوة ، و توتير الأوضاع قصد إيجاد أرضية قابلة للتنير في مرحلة أولى و ممكنة التفجير في مرحلة ثانية ذلك أنه طيلة الستة أشهر التي قضاها بين الفراشيش كان معبرا في تصرفاته عن هموم سكان فوسانة ، متمثلا لأمانيهم ، و شديد الوعي بواقعهم ومشاكلهم ، فهو قد وعدهم بعد أن تشكوا له من الخدمة العسكرية بأن لا يذهب أبناؤهم أبدا إلى عسكر النصارى .

كما أن عمر بن عثمان قد تجسدت فيه معاناة الأهالي من نير المعمرين ، فكان محمسا للمناهضين لهم مروجا بين السكان القول بأن الفرنسيين سيغادرون تلك السنة 1906م الايالة ،مؤكدا أن ساعة الخلاص قد دقت ، و أن الفراشيش لن يعانوا إطلاقا إذا أتبعوا نصائحه ، مرددا باستمرار قوله : أنا عمر و نحب العماره نطهر البلاد و نخرج النصارى .

بذلك لم يع عمر بن عثمان مشاكل و طموحات أهالي فوسانة فحسب ، بل تمثلها في حياتها و هو ما زاد في حماسهم و نقمتهم على الجائرين على بلادهم[1] .غير أن ذلك كله ما كان ليكون كافيا لتفسير قدرة عمر بن عثمان على تحريك الأهالي ، غذ أنها مواصفات كان بالإمكان أن تتمثل في غيره ، و بالتالي أن يقود ذلك التحرك بدلا منه [2].

للوقوف على إبعاد أحداث هذه الانتفاضة الوحيدة التي وقعت بتونس في ظل الوجود الفرنسي و انطلاقا من الزوايا ، حيث يرى أحد المحللين " أن هذه الأحداث وقعت حسب القانون العام الذي يتحكم في الانتفاضات بشمال إفريقيا تاريخيا : انتفاض فجئى مثل الريح يقع بدون أن تنتبه إليه السلطات ، و تبشير ولي يزرع التعصب في أذهان الفلاحين بالريف و يقنعهم بان بنادق الرومي ستكون غير فاعلة مجموعة من المتعصبين مسلحين برداءة يعرضون أنفسهم بشجاعة ، بل يمكن أن نقول ببلاهة إلى الموت ، و إلقاء القبض على المحرضين بعد فشله من طرف مسؤول من الأهالي " [3].

لعل هذا التقييم قد وقع اعتمادا على تجارب الانتفاضات التي وقعت بالجزائر و التي كانت من بينها انتفاضة بوعمام سنة 1881م بمقاطعة وهران ، حيث كادت انتفاضة 1906م بالبلاد التونسية

---

1 -Timoumi , op.cit , p331- 345

2 - Ibd.p345-346.

3- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 85.

تكون إعادة لها في جميع أبعادها . ذلك أن تمثل عمر بن عثمان لمشاكل الأهالي ، تعبيره عن طموحاتهم و أمانيهم ما كان كافيا ليمكنه من كسبهم و فهم من حوله ،و بالتالي تحريكهم ضد عدو جائر على أرضهم لا يملكون لا العدة و لا العدد الكافي لمواجهته. لقد أضاف عمر بن عثمان إلى اهتماماته الحياتية للسكان أخرويا ينسجم مع طبيعتهم المتعلقة بالأولياء و الصالحين ، و المعتقدة في صلاحهم و تقواهم ، و المؤمنة بكراماتهم وواجب تصديقهم فيما يخبرون عنه [1] .

فلقد طلب منه الأهالي توسطه لنزول أمطار طوفانية ..، إلى حد أصبح معه الأهالي يخشون مكروها ، و يطلبون من عمر توقفها ، فوعدهم بذلك ، ......فتقشعت السحب وصفا الجو ..، كما أن أحد الذين سرقوا له شياها أهديت له ، و لم يلبث أن فقد ابنه و جزءا هاما من قطيعه الذي أكلته الذئاب، بالإضافة إلى ثلوج هامة غطت أرض الفراشيش ، و أفنت جزءا هاما من مواشيهم[2] . و هي كوارث فسرها الأهلي بغضب الولي الصالح عمر بن عثمان ، الذي كان لا بد من صفحه و عفوه عنهم حتى يكونوا في مأمن من كل المصائب . فتها طلت عليه لهدايا و العطايا ، و زادت مكانته في فوسانة بعد أن تيقن أهلها من ولايته تبعا لكراماته العديدة .

لقد زاد نجاح عمر بن عثمان في تلك الاختبارات في تدعيم مكانته كولي بين الأهالي الذي اعتقدوا أن الله جباه بقوة خارقة للعادة فلقبوه بصانع المعجزات و بوصوله إلى تلك المنزلة لم يكسب عمر بن عثمان ثقة الأهالي فحسب ، بل ملك قلوبهم و مشاعرهم ، فصاروا طوعا لإرادته ، مستعدين لتنفيذ كل ما يأمر هم به .

هكذا تمكن عمر بن عثمان بعمق معرفته للواقع الذي يتحرك فيه ، و بنفوذه الروحي على الأهالي من جعل سهل فوسانة يعيش في شهر افريل من سنة 1906م جوا حقيقيا من الجهاد المقدس ، كهربه وصول ولي آخر من قفصة يكن له الفراشيش آيات الاحترام و الإجلال ، و بذلك تجمعت كل العوامل ليحصل الانفجار بعد كبت دام حوالي ربع القرن مر على دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد .

سعيا منها للحيلولة دون تكرر تلك الواقعة ، أخضعت الإدارة الفرنسية الأولياء الصالحين لمراقبة شديدة ، و طالبت الإدارة الفرنسية الجهوية بمدها بكل المعلومات المتوفرة لديهم عنهم من

1- العجيلي ،المرجع السابق، ص 161
2 - نفسه ، ص 161

حيث درجة نفوذهم على السكان و كذلك تنقلاتهم و تحركاتهم . بل وصل أمر حذرها منهم أنها منعت الترخيص في رفع سنجق أي أعلم على الزاوية القادرية بجبل مغلية قرب سبيطلة بجهة القصرين .

نلاحظ في الهجوم على المراقب المدنية للإدارة الاستعمارية ، فقد نلمس من ورائه بعض الحس السياسي الذي لم يبلغ حد الوعي ، اما بالنسبة لحدودها السياسية فتبرز بانعدام التخطيط و العفوية و الزائدة التي اتسمت بها و التي جعلتها تنطفئ بسرعة ، و إن انتفاضة الفراشيش سنة 1906 م التي أعتبرها المعمرون الفرنسيون بداية يقظة الإسلام ، و غزو المسلمين للعالم حملت الإدارة الفرنسية على القول بأن الزوايا تقف وراء كل ما يحدث بالايالة و فرضت عليها بالتالي القيام بدراسة ميدانية و إحصائيات اقرب ما تكون إلى الصحة حول كل ما يتعلق بالطرق ، فكانت إحصائيات سنة 1911م كما سبق أن أوضحنا .

2-2-2- أحداث الجنوب :

رغم أن الجنوب التونسي يعتبر آخر جهة من الايالة خضعت للاحتلال الفرنسي بعد صمود طويل مما حتم على الإدارة الفرنسية وضعه تحت الإدارة العسكرية ، و فإنه ما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى ، دخلت فيها الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا ، حتى عمته الانتفاضات ، كان مسرحا للعديد من المعارك العنيفة ضد القوات الفرنسية ، من خلال الوثائق التي أطلعنا عليها ، يمكننا الإشارة في هذا الصدد إلى موا قف الطريقة التيجانية هناك[1].فلقد عمل شيخ زاوية التيجانية الأم على استغلال الأوضاع المضطربة للجنوب لينشئ زاوية تيجانية بجوار تطاوين حتى تنافس كلا من الطريقة الرحمانية والقادرية اللتين لهما أتباع كثيرون هناك .

كما أن الطريقة التيجانية قد برزت في العديد من المناسبات عن إخلاصها وفائها و ذلك أثناء الأحداث التي هزت منطقة الجنوب سنة 1915م و 1916م ، و هو نفس الموقف الذي صدر عن

[1]- المرزوقي ، المرجع السابق ، ص 51.

كل من الطريقة الرحمانية و القادرية بنفس المنطقة[1] .ومن جهة أخرى و في نفس السياق فإن سعد بن الحاج ناصر القاضي مقدم التيجانية قد عمد أثناء أحداث الجنوب تلك إلى تجميع أتباعه في العديد من المناسبات ليوصيهم بأن يكونوا إلى جانب فرنسا ، حيث قرأ عليهم رسائل في نفس الغرض واردة عليه من الزاوية الأم.

أما البشير بن محمد بن سي العيد شيخ التيجانية الأكبر بتامسين بالجزائر فقد أرسل أحد مقدميه إلى جهة تطاوين ليقوم على حد قوله بتهدئة الخواطر ، و نشر الهدوء ، و السلم المطلق ..، و حمل التاس على الهدوء و الانقياد لفرنسا ...، و احترام القوانين .. ، ووضع حد للشائعات المغرضة التي تدور هناك بين الأهالي [2].

نلاحظ من خلال هذا أن الطرق الهامة في الجنوب ليس فقط امتنعت عن المساهمة في الأحداث التي هزته فيما بين سنتي 1914م و 1915 م بل عملت في أغلب الأحيان على حط العزائم ، و تفشيل القبائل وفاء منها لفرنسا .و هذا ما يدل على أن العامل الطرقي لم يكن ملموسا وراء تلك الأحداث و إنما كان ضدها و رغم ذلك فإن جل القبائل تجاوزت المعطى الطرقي و أبلت البلاء الحسن ، مدفوعة في ذلك ببعدها عن مقر الإدارة الفرنسية ، و مستفيدة من رحيل الجنود الفرنسيين إلى الجبهة ، و من قربها إلى طرابلس الغرب حيث في جنوب البحر الأبيض المتوسط و التي من شأنها أن تربك الفرنسيين [3].

إن كل تلك الأسباب السالفة الذكر ، يضاف في ثورة الجنوب إبان الحرب العالمية الأولى دور التونسيين الذين كانوا قد التحقوا بمقر الخلافة العثمانية كصالح الشريف الموجود بها منذ سنة 1906م ، على باش حانبة و غيرهما .

فهؤلاء سعيا منهم لحمل التونسيين على الوقوف إلى جانب الخلافة ضد فرنسا أرسلوا الرسائل إلى بعض الأعيان التونسيين على طرق طرابلس الغرب ضمنوها وجوب الدعوة إلى الجهاد ، ووعدوا بتوفير السلاح بواسطة الغواصات الألمانية . وبقطع النظر عن إيفاء الأتراك بما وعدوا به أو عدمه ، فإن أحداث الجنوب جاءت لتثبت مدى الثورية التي كانت في قبائله .غير اندلاع ثورته و خاصة

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، 163.
[2]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 164.
[3]- نفسه ، ص 164.

نجاحها كان متوقفا على المدد الخارجي ، مما جعل تلك القبائل رغم حدة المعارك التي خاضتها ينتهي أمرها إلى الانهزام و الاستلام ، و ذلك راجع ليس لعوامل خارجية فقط ، بل و كذلك لأسباب داخلية من بينها السلبية و الدور التفشيلي الذي قامت به معظم الطرق الصوفية في المنطقة [1]. و بصفة عامة وإذا ما استثنينا أحداث تالة فإنه يمكن القول بأن الاتجاه العام لجل الطرق بالايالة من وجود الاستعمار الفرنسي بها كان يتميز بالمهادنة والتعامل معه في أغلب الأحيان .

[1]- العجيلي ،المرجع السابق ، ص 164.

1- الطرق الصوفية تجاه المسألة الإستعمارية :

إن التناقض بين الدول الاستعمارية الذي جسده مؤتمر برلين يوم 13 جوان 1878م حول اقتسام ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ،فقد كانت بريطانيا حريصة على إيجاد توازن بين القوى في البحر الأبيض المتوسط ووجهت أطماعها إلى البحر الأحمر ،وعملت على استيلائها على مصر والاستحواذ على قناة السويس وهذا لأهمية الممر المائي وذلك من اجل ربط مستعمراتها في الهند.

ولتلك الاعتبارات شجعت تلك الأخيرة استيلاء فرنسا على تونس على حساب ايطاليا ،حيث كانت تخشى إغلاقها لمضيق صقلية في صورة انتصابها على الضفتين ،كما رغب بسمارك باستيلاء فرنسا على تونس سعيا منه لعزلها عن القارة الأوروبية ،حتى ينسيها التفكير في مقاطعتي الالزاس و اللورين [1] ،وبهذا تكون فرنسا قد تجاوزت العراقيل الخارجية من اجل احتلال تونس .

وفي يوم 24 أفريل 1881م تسربت كتيبة فرنسية تظم 35000 رجل من الجزائر إلى تونس بقيادة الجنرال لوجيروا ،حيث احتلت مدينة الكاف في 26 افريل وسوق الأربعاء في 29 من نفس الشهر وعين دراهم في 11 ماي ،وفي نفس الوقت قامت وحدة المشرق البحرية باحتلال طبرقة يوم 26 افريل بعد قصفها بالقنابل [2]، فتعززت القوات الفرنسية بنزول فرق عسكرية أخرى بميناء بنزرت بقيادة الجنرال بريار [3]. وفي 12من نفس الشهر دخل في حامية غالى قصر باردوا بمعية القنصل الفرنسي روستان بعد أن اعلم الباي رسميا بهذه المقابلة وما كان من الباي إلا أن يخضع ويوقع على معاهدة باردوا التي تكرس الهيمنة على البلاد التونسية.

رغم ذلك فقد تابع الجيش الفرنسي عملياته العسكرية بعد إبرام معاهدة الثاني عشر ماي ،فاحتل ماطر يوم 18 ماي ،ودخل الجنرال لوجيرو مدينة باجة يوم 20 من نفس الشهر[4] ،وبعد ما تم خضوع قصر الباي واعترافه بالحماية الفرنسية ،ورغم صدور قرار الحماية فقد كانت هناك مقاومات شعبية ضمت معظم الايالة .

---

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ،ص114

[2]- علي محجوبي ، المرجع السابق، ص 44

[3]- المرجع السابق ص114

[4]- المحجوبي ، المرجع ، ص44

1- موقف الطرق الصوفية من المقاومة الشعبية :

إن الصدى الذي وصلت إليه الطرق الصوفية في فترة الاستعمار الفرنسي تمثلت فيما تمتعت به من نفوذ مادي وأدبي هامين ،وكونت قاعدة شعبية عريضة ،وقد كانت القوة الوحيدة تقريبا القادرة على التصدي للاستعمار الفرنسي وذلك باستنفارها إلى السكان وإعلان الجهاد ،إذ نجد أن أعيان المنطقة و شيوخ القبائل قامت بتنظيم مقاومات شعبية. و لمعرفة موقف الطرق الصوفية تجاه تلك المقاومات نطرح السؤال هل كان لشيوخ الطرق الصوفية يدا فيها أو بالأحرى هل كانت وراء تلك المقاومات .و لمعرفة هذا يجب أن نتعرض إلى المقاومات التي قام بها الأهالي .

1-1- المقاومة بالشمال :

لقد كانت قبائل **خمير** وسكان الجبال عموما في طليعة حركة المقاومة في شمال البلاد ،فما إن سمع نبأ وصول السفن البحرية إلى ميناء طبرقة حتى هب متطوعون من أولاد بوسعيد و الحوامدة وأولاد عمر بقيادة شيوخهم للمقاومة ولمواجهة الأعداء ،ولم تتمكن قوات الاحتلال من الاستيلاء على المدينة في 26 افريل 1881م إلا بعد قصفها ،أما الفروع الأخرى من خمير فلم تغادر مواقعها بل بقيت لقطع السبيل على القوات الفرنسية القادمة من الجزائر، وهي التي تصدت لكتيبة الجنرال فانسندون في 26 افريل 1881 [1] .

السلطات العسكرية الفرنسية بان أفراد هذه القبائل قد "استماتوا في الدفاع طول ساعات عديدة ولم يوقفوا القتال ، إلا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة "[2]،ثم تواصلت المقاومة في جهة جندوبة بمشاركة قبائل أولاد بوسالم والشياحية وعمدون، وكانت هذه القبائل مدعمة بأبنائها من الجنود الذين فروا بأسلحتهم من معسكر علي باي في 29 أفريل 1881م للدفاع عن مواطنهم اثر احتلال سوق الأربعاء كما اندلعت المقاومة في جهة جندوبة بمشاركة أولاد سالم و الشياحة و عمدون ، و كان منطقة سهل بوسالم مسرحا للأحداث في 30 افريل معركة عنيفة دارت رحاها في موضع يعرف ب" بن البشير" حيث تواصل القتال من الثامنة صباحا إلى السادسة مساء ،واضطر المقاومون اثر ذلك إلى

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ص 123. أنظر : علي محجوبي ، تاريخ تونس ،ص 46.
[2]- نفسه، ص 35.

التقهقر والفرار من ساحة المعركة نظرا لتفوق التقني الذي أظهره العدو وبعد وصول تعزيزات هامة لقواته [1] .

اجهت بنفس الحدة قبائل مقعد وهذيل في الشمال حيث تميزت مقاومتها الشديدة للغزاة حيث واجهة قوات الفرنسية بكل شجاعة في جهتي ماطر وبنزرت ،ففي 28 افريل 1881م إستولى أبناء قبائل مقعد على سفينة حربية فرنسية غرقت في عرض الساحل التونسي بين رأس سرات وميناء بنزرت فنهبوها واسروا من فيها [2] ،اثر ذلك طاف الشيخان داود بن سعد من المشارقة والحاج محمد بن احمد من مشيخة العرب بالمنطقة لاستنفار السكان وحثهم على حمل السلاح ،فاستجاب كل أفراد مقعد وهذيل لنداء المقاومة وأصبحوا على أتم الاستعداد لمواجهة الأعداء ،وهذا ما أكدته السلطات العسكرية الفرنسية نفسها عندما أشارت إلى أن "قبيلة مقعد كانت برمتها في حالة عصيان في 12ماي وانتشرت أفرادها في سهل ماطر حيث التحق بهم متطوعون من هذيل وبجارة و مشيخة العرب وجزء من سكان المدينة "[3] ، ولم تتمكن قوات الاحتلال من القضاء نهائيا على مقاومة هذه القبائل إلا في بداية شهر جوان ،إذ استسلم أبناء مقعد واجبروا على تسليم أسلحتهم للعدو ، كما قدموا حوالي عشرين رهينة تم سجنهم في مدينتي عنابة وتونس ، كما التزموا أيضا بدفع غرامة حربية قدرها 12000 فرنك ،وعمدت سلطات الاحتلال في نفس الوقت إلى نزع السلاح من أفراد هذيل وبجاوة وسكان ماطر[4] .

وبعد أن خضع سكان المناطق الجبلية ظنت حكومة الجمهورية أن ملف القضية التونسية قد طوي وهذا ما حملها على التخفيض من قواتها العسكرية منذ 10 جوان ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فقررت حل جيش الاحتلال في السادس والعشرين من نفس الشهر ، إلا أن السلطات الفرنسية قد أجبرت مرة أخرى على تعزيز جيشها بالبلاد التونسية حتى تتمكن من التصدي للمقاومة التي انتشرت في الوسط والجنوب والساحل ،وكانت القبائل في هذه المناطق كذلك في طليعة المقاومة إذ لعبت "نفات " و "جلاص " و " الفراشيش " و "الهمامة " و "أولاد عيار " دورا حاسما في هذه الحركة.

[1]- المحجوبي على ، مقاومة السكان التونسيين للإحتلال الفرنسي ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، السنة 11 العدد 34/33 ، جوان 1984 ، ص 113.

[2] - المحجوبي ، نفسه ، ص 113.

[3]- المحجوبي ، المرجع السابق ،ص 54

[4]- حيث يشير المؤرخ العجيلي أن مدينة بنزت استسلمت دون أي مقاومة في شهر ماي 1881م.

حيث كانت الاتصالات دائمة ومنظمة بين شيوخ هذه القبائل ،إذ حاول كل من علي بن خليفة قائد نفات والحاج حسين بن مسعى قائد أولاد يدير من جلاص والحاج علي الحراث شيخ أولاد وزاز من الفراشيش واحمد بن يوسف قائد أولاد رضوان من همامة وعلي بن عمار القائد السابق لأولاد عيار[1] تنسيق جهودهم وتوحيد إعمالهم مكونين بذلك شبه مجلس قيادي لتسير المقاومة.وكان ذلك إثر الاجتماع الذي عقد بجامع القيروان بين 15-20 جوان 1881م ، و هاذ ما أدى إلى اتساع رقعتها بسرعة مذهلة ، كما تم الاتفاق بين الأطرف المجتمعة على بعث ثلاث أعضاء إلى طرابلس ، لمعرفة نوايا الباشا التركي تجاه دخول الجيش الفرنسي لتونس [2].

و امتدت إلى قبائل أخرى كالمثاليث وأولاد سعيد والسواسي وأولاد عون وغيرها .وفي هذا الظرف تجاوزت كل هذه القبائل خلافتها المزمنة وانقسامها المعروف إلى صفين متعاديين (أي الصف الحسيني – يوسف والباشي – شداد)[3] للوقوف صفا واحدا في وجه الأعداء ولوقف الخطر الذي بات يهدد البلاد . بل ذهب إلى أكثر من ذلك فقبلت بأن يكون علي بن خليفة قائد نفات على رأس المقاومة لما عرف به هذا الرجل من حركية ونشاط دائب . وقد عرفت هذه الحركة انتشارا واسعا منذ شهر جوان 1881 وأصبح السكان يعيشون في حالة هيجان قصوى " فاضطر الكثير من القياد على الفرار إلى مدينة تونس هروبا من و تهديدات رعاياهم .

كما شددت الرقابة على البعض الآخر حتى أصبح لا يتجاسرون على وضع حد لحالة الاضطرار التي تعيشها القبائل ، و كل ذلك خوفا من أن تؤول مواقفهم و ينعتون بالخيانة .و لقد تخلى الكثير منهم على مناصبهم و التحقوا بالعاصمة (لينظموا إلى جملة المسؤولين المحليين الذين تركوا مراكزهم عند إحساسهم بالخطر)[4] ، وامسك حين إذ قوات المقاومة بزمام الأمور و تصرفوا كسادة حفيين في مناطقهم ، و صاروا يهيئون السكان عن الدفاع عن البلاد و يحثونهم على المقاومة قبل أن تصل القوات الفرنسية إلى المناطق التي يراقبونها ، و هكذا فإن جل قبائل البلاد التونسية كانت في شهر جوان 1881 م في حالة انتفاضة عارمة . و قد اعترفت السلطة العسكرية الفرنسية نفسها بأن

-1 أنظر - Hachemi Karoui , Ali Mahjoubi K Quand le soleil s'est levé à l'Ouest Tunisie 1881[1]
أنظر.,لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 78.
[2] - -Martel (A) , Les Confins saharo Tripolitains de la tunisie 1881-1911, paris, 1965 , p 230.
[3]- و الملاح أن القبائل الحسينية الموالية تقليديا للعائلة المالكة لم تأخذ بعين الاعتبار نداء الباي الداعي إلى الاستسلام لقوات الاحتلال و قد لعبت بعض القبائل الحسينية و جلاص و الهمامة الدور الأساسي في حركة المقاومة [3]
[4]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 68 .

" روح المقاومة كانت تختلج آنذاك – أي في 20 جوان – في صدور جل سكان الايالة الرحل ذلك خارج المناطق التي تراقبها قواتنا ".

وفي يوم 19 أوت 1881 م انعقد اجتماع أخر بسبيطلة حضره الكثير من أعيان و شيوخ قبائل أولاد عيار و جلاص و الفراشيش و ماجرمن أجل كيفية تنيم المقاومة [1] ،و تجسدت تلك الاجتماعات التي أقامها شيوخ القابل في معركتين ، فالمعركة الأولى شاركت فيها قبائل الفراشيش و الزغالمة و ماجر ، متكونة من ألفين جندي تحت قيادة محمد بن يونس و الحاج الحراث ، إلا انها انهزمت أما الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال فورجمول بمنطقة حيدرة يوم 17 أكتوبر ، أما المعركة الثانية التي شارك فيها أولاد عيار و ماجر و الفراشيش و جلاص ، و الفوايد بقيادة الحاج علي ابن عبد الله و أولاد مهنة بقيادة فرحات بن علي بن سيد ، و جلاص و الهمامة و الزغالمة .

و كانت خطة المقاومة ترمي إلى منع جيش الاحتلال من محاصرة صفاقس من جهة البحر و الوقوف في وجهه حتى لا يتوغل داخل البلاد ، و قطع كل السبل المؤدية إلى مدينة القيروان . و لهذا الغرض توجه على بن خليفة النفاتي إلى صفاقس لتنظيم صفوف المقاومة .

إن هذه الأحداث المتعلقة بالمقاومة بالشمال ما هي إلا ميولات و انتماءات لطرق صوفية لقبائل سابقة الذكر ، التي نظمت و أعدت تلك المقاومات ، حيث نجد أن قبائل خمير التي تنتمي إلى الطريقة الرحمانية (و تعود النظر إلى الحنفاوي بن مصطفى ابن عزوز شيخ زاوية رحمانية بنفطة ، و على بن شيخ الرحمانية بالكاف و كذلك أحمد بن عبد الملك شيخ الرحمانية بقنطرة سليانة)[2].

و يبدو أن الطريقة الرحمانية كانت وراء تلك المقاومات لقبائل خمير و عبدون و خاصة أن على بن عيسى و أحمد بن عبد الملك هم صاحبي النفوذ الروحي في تلك المنطقة و مبادئهما المناهضة للوجود الفرنسي في التراب التونسي .و من جهة أخر فإننا نرى أولاد بوسالم ينتمون إلى الطرقة القادرية في حين تنتمي قبائل عمدون إلى الطريقة الرحمانية ، ما نلاحظه هو توغل الطريقة القادرية بالكاف الذي تجاوز أولاد غانم و زغانمة و الشارم حيث يصل إلى بنزرت [3] . و رغم أن المراقب المدني ببنزت فسر اعتراضه على ترشح البشير بن حمودة التابع لزاوية البنا ببنزرت و هي تابعة لطريقة

-1 Timoumi (H) , paysannerie tribale et capitalisme colonial, l'exemple du centre , Ouest tunisien , 1881-1930 , thèse pour le doctorat de 3ème cycle , nice 1975, p 179.

[2]- العجيلي، نفسه ، ص 121.

[3]- نفسه ، ص 124 .

القادرية التي تمثل خطر على السياسة الفرنسية لأن الطريقة القادرية لها أتباع كثيرون بالمراقبة المدنية ببنزرت [1] .

على ما أعتقد أن استسلام مدينة بنزرت بدون أي انتفاضة أو مقاومة مسلحة قد يرجع إلى موقعها الجغرافي و دورها التجاري و قد يعود إلى دور الطريقة القادرية أو غيرها من الطرق الصوفية الهامة التي ربما قد ساهمت في استسلامها بطريقة أو بأخرى ، رغم أننا لم نحصل على أي دليل يؤكد ذلك .هذا بالإضافة إل اندماج سكان المدن[2] بالفكر المجتمع الأوربي ، و كذلك تخوفها من دخول في معركة غير متكافئة ، مما يهدد مصالحها .

1-2- المقاومة بالجنوب (قابس و صفاقس)

و قد عاشت صفاقس خلال شهر جوان 1881 في جو من الاضطرابات قام بها عامة السكان بالاشتراك مع جمع من قبيلة مثاليث ، و كانت الشائعات الرائجة آنذاك حول تدخل الدولة العثمانية لطرد فرنسا من البلاد التونسية قد زادت في توتر الوضع في هذه المدينة .مما بعث الفزع الجاليات الأوربية و كذلك في أعيان المدينة الذين يخشون عمليات النهب التي قد يقوم بها الأعراب في وضع يتسم بعد الاستقرار و لم يكن لجوء عائلة نائب القنصل الفرنسي بصفا قص في 25 من شهر جوان إلى باخرة "البشير " التونسية [3] ليطمئن الجاليات الأوربية .

فأسس القياد حسونة الجلولي بمعية الأعيان حراسا مدنيين لحماية الأوربيين من غضب السكان و صيانة المدينة من الأعراب [4]، كما بعثت لنفس الغرض السلطات الفرنسية بتونس بباخرة " الشكال " التي أرست بصفا قس في 27 جوان 1881م ، مما زاد في هيجان عامة السكان الذين هاجموا في 28 من الشهر بمعية جمع من المثاليث قنصلية فرنسا ، ونزعوا من فوقها العلم كما ضربوا نائب القنصل الفرنسي " ماتي " و هم يصيحون الموت للفرنسيين" و ذلك دون أن يمسوا بسوء بقية الأوربيين اللذين لجؤ رغم ذلك إلى باخرة الشكال ، و وفي 29 جوان 1881م هاجم الثوار القايد حسونة الجلولي لتواطئه مع الفرنسيين ، و لم ينجى هذا الأخير من غب السكان إلا عندما احتمى بزاوية سيدي على الكراي قبل أن يلتحق سرا في الفاتح من جويلية بمعونة أعيان المدينة إحدى سفن الأسطول الفرنسي التي أرست في نفس اليوم بصفا قس ضمن المدد الذي بعث به " رسطان "

---

[1]- العجيلي، المرجع السابق ، ص 89- 93 .
[2]- سكان المدن عادة ما تتكون من الحرفيين و الصناعيين و الحوفيين و التجار و و كبار الفلاحين
[3]- و هي باخرة حربية قديمة من أسطول الباي .
[4]- علي محجوبي ، انتصاب الحماية الفرنسية على تونس ، ص 151.

بالاتفاق مع الوزير الأول مصطفى بن إسماعيل [1] ، اثر اضطرابات 28 جوان 1881م لقمع المقاومة لتي كانت تتأهب لحماية المدينة من الغزو الفرنسي . فتأسست لجنة للدفاع على المدينة تضم أربعين عضوا من صفاقس و عشر من المثاليث تحت رئاسة محمد شريف ضابط المدفعية بحماية صفاقس [2] التي أنظمت إلى المقاومة مع قائدها محمد معتوق و بمساندة شيخ محمد كمون بينما أقبل إلى صفاقس عدد كبير من الأعراب لتعزيز المقاومة.

ووصل علي بن خليفة النفاتي إلى ضواحي هذه المدينة في بداية شهر جويلية لعدد كبير أبناء قبيلته، و منها صار على اتصال دائم بقبائل المثاليث و سوامي و جلاص . كما بعث برسل لساحل سوسة و قبائل أولاد سعيد و رياح و طرابلسية و زغوان . و بفضل الدعم الذي لقيه من نفات و بني زيد و المثاليث صار علي بن خليفة القائد الفعلي لصفا قس و اعترف سكان المدين بنفوذه و سلطته ، و طرحت عليه لجنة الدفاع عن المدينة كل المسائل الدقيقة و العويصة التي يمليها الموقف . كما اعترف أعيان المدين بعد فترة طويلة من التردد و المراوغة لسلطته إذ رؤوا فيه الرجل الوحيد القادر على حماية أملاكهم من عملات السطو و النهب التي يمكن أن يقوم بها البدوا المرابطون بصفا قس و ضواحيها .

ير أن المقاومة لم تستطع الصمود طويلا أمام الأسطول الفرنسي ، الذي بلغ أوجه في 14 جويلية ، حيث ضم سبعة عشر سفينة حربية و ستة آلاف جندي ، و ذلك نظرا إلى تفاوت التقني بين أسلحة الثوار التونسيين و سلاح قوات الاحتلال .و سقطت مدينة صفاقس في 16 من شهر جويلية 1881م بعد قسف دام عدة أيام طوال 15 جويلية و ذلك رغم ما أبداه رجال المقاومة من بسالة و شجاعة أدت إلى هلاك عدد كبير منهم [3].

و إثر احتلال صفاقس اتجه بعض الأعيان من البدوا يتقدمهم **الحاج الصالح بن خليفة** شقيق قايد النفات نحو قابس لتنظيم المقاومة لهذه المدينة التي تتركب آنذاك من قريتين : المنزل و جارا. و كان سكان قابس يتوقعون قدوم الأسطول الفرنسي إلى بلدتهم. و فعلا فقد أرست في 21 من شهر جويلية 1881م باخرة حربية فرنسية بهذه المدينة ، وبعث قائد السفينة برسالة يطلب فيها من الأهالي توضيح موقفهم تجاه القوات الفرنسية ، فوقع لذلك اجتماع في دار الخليفة المنزل بحضور

[1]- حيث قررت حكومة الباي بعث 1500 جندي تونسي إلى صفاقس لقمع المقاومة إلا أن هؤلاء الجنود الذين قدموا إلى صفاقس في سفن فرنسية لم يخفوا تعاطفهم مع الثوار و ذهب بعضهم إلى الالتحاق عوما بالمدينة لتعزيز حركة المقاومة .

[2] -Ayadi , (T) , Mouvement réformist et mouvements populaires à tunis 1906-1912 , tunis 1986, p 186.

[3]- يقدر عدد الثوار الذين ماتوا خلال المقاومة بصفاقس بين 800 و 1000 شخص ، أما من الجانب الفرنسي فقد مات 40 جنديا أنظر توفيق العيادي المقاومة الصفاقسية للاحتلال الاستعماري سنة 1881 ، ص 36.

قاضي و مفتي هذا البلدة ،و كذلك جمع من أعيان جار يتقدمهم وكيل جمعية الاحباس الحاج **أحمد بن جراد** الذي دعا الجماعة باسم الواقعية إلى الخضوع القوات الاحتلال [1] ، غير أن هذا الاقتراح قد قوبل بالسب و شتم و الرفض من طرف جل الحاضرين ، و جاء خبر أثناء الاجتماع مفاده أن الجيش العثماني قد نزل بطرابلس و أنه سيحل عن قريب بقابس. فزاد ذلك في عزم الجماعة في مقاومة الاحتلال ، و أصبحت المنزل مركزا للمقاومة يقبل إليها المقاومون من جميع قرى واحة قابس مثل شنيني و الغنوش و بوشمة و وذرف و المطوية و الحامة و كذلك من قبائل نفات و بني زيد و حازم و ورغمة ،كما التحق بصفوف المقاومة جمع من الفقراء جار [2].

ووصل الأسطول الفرنسي إلى قابس من 24 جويلية 1881م، حيث بدأ في قسف المنزل و استقبل أعيان جار في مدخل القرية جنود العدو الذين انتصبوا ببرج هذه البلدة ليطلقوا النار على الثوار المتجمعين بالمنزل ، و رغم ذلك تمكن رجال المقاومة من اكتساح بطحاء السوق بجارة حيث دارت معركة بينهم و بين الجنود الفرنسيين فانتهت بعودة هؤلاء إلى معسكرهم الكائن على الشاطئ إلا أن قوة الاحتلال أعادت الكرة في 26 من شهر جويليا بقيادة الكولونيل جامي ، وتمكن من احتلال جار . لم يحد ذلك من عزيمة المقاومة التي تواصلت لبقية قرى الواحة مكبدة العدو خسائر في العتاد و الأرواح [3] ، و صمد الثوار لمدة تزيد عن أربع أشهر واصلوا فيها مناوشة سكان جار الخاضعين للعدو و كذلك القوات الفرنسية التي تتمكن من السيطرة الفعلية و التامة على هاته المنطقة إلا في نهاية شهر نوفمبر 1881م .

1-3- المقاومة بالساحل والوسط :

همت المقاومة أيضا قبائل جلاص والهمامة وسكان قرى الساحل الذين هبوا في غمرة الحماس لمقاومة قوات الاحتلال ، بعد أن انضم إليهم عدد كبير من الجنود النظاميين الذين هربوا من جيش الباي للدفاع عن بلادهم ، وقد نشط هؤلاء الجنود أربعة مراكز للمقاومة بالقلعة الكبرى وجمال وبنان وقصور الساف يقودها تباعا الساسي سويلم والحاج علي بن خديجة وسعد بن حسين القم وولد البحر .

وبعد مرحلة التعبئة مر المقاومون إلى العمل على منع جيش الاحتلال من التقدم ، ففي 5 أوت تقريبا بارح نفر كبير من جلاص مدينة القيروان واتجهوا نحو الشمال حيث أغاروا بضواحي باردو

[1] - العجيلي ،المرجع السابق ، ص 91.

[2]- أنظر الهاشمي القروي و علي محجوبي ، عندما أشرقت الشمس من الغرب ، الاستعمار و المقاومة ، تونس 1881.

[3]- ففي 28 جويليا 1881 أسر رجال المقاومة ثلاثة جنود فرنسيين و أعدموهم حرقا ببطحاء بلدة شنيني بحضور الحاج صالح بن خليفة .

على قطيع من الإبل يملكه الباي الذي اتهمه السكان بخيانة البلاد وتسليمها للعدو ، واستجابة للنداء الذي وجهه الحاج حسين بن مسعي ، هبت جموع غفيرة من جلاص والهامة والسواسي وأولاد سعيد ورياح والطرابلسية تعضدهم حامية القلعة الكبرى للجنود الهاربين من جيش الباي للتصدي في جهة تونس للقوات الفرنسية و منعها من التقدم إلى داخل البلاد . و تمكن هؤلاء المقاومون من إدخال الرعب و الاضطراب في صفوف العدو لمدة أربعة أيام متتالية في الفترة الفاصلة بين 26و29 أوت 1881[1] . ففي 26 من نفس الشهر انقضوا على المعسكرات التابعة لكتيبة المقدم **كوريار** المرابطة آنذاك ببئر حفيظ قرب قرمبالية . و لم يكتف المقاومون بذلك بل التحقوا في الليلة الفاصلة بين 28و 29 أوت بالقوات الفرنسية وردوها على إعقابها في منطقة الأربعين بعد معركة ضارية تواصلت من منتصف الليل حتى الرابعة صباح . و إثر هذا الانتصار الذي أحرزته قوات المقاومة واصل التونسيون كمطاردة هذه الكتيبة التي ما انفكت تتراجع و تتقهقر عن مواقعها ثم هاجموها من جديد يوم 29 أوت على مقربة من قرية تركي . و باعتراف السلطات الفرنسية نفسها فغن المقاتلين التونسيين قد جابهوا العدو بكل بسالة طيلة هذه المعارك الثلاث . و قد برز جنود القلعة الكبرى بصفة خاصة في معركة الأربعين التي استشهد فيها الساسي سويلم [2] . و كان من نتيجة هذه المعارك أن عرقلت المقاومة زحف القوات الفرنسية داخل البلاد و لو لفترة وجيزة بل و أجبرت كتيبة المقدم كوريار على الانسحاب إلى حمام الأنف ضاحية تونس العاصمة .

وكانت هذه الانتصارات حافزا لرجال المقاومة دفعهم إلى مواصلة الهجوم على جيوش الاحتلال. ففي بداية سبتمبر 1881 قامت قوات من جلاص ورياح و أولاد سعيد و الهمامة و الطرابلسية بمناوشات ضد الجيش الفرنسي بمنطقة زغوان كما خربت حنايا زغوان في ثلاثة مواضع في الليلة الفاصلة بين 11و12 سبتمبر ، و دخلت في 14 في نفس الشهر في معركة حامية ضد جنود الفيلق الخامس حيث أصيب يوسف بن أحمد ابن قايد الهمامة بجروح في يده[3].

و كرد فعل على هذه الأعمال أوقف الجنرال صاباتييه خمسة عشر من أعيان زغوان و احتفظ بهم كرهائن و فرض على سكان هذه المدينة الذي اتهمهم بالتواطؤ مع المقاومين غرامة تقدر ب 200 قفيز من الشعير و 100 رأس بقر و 200 من خروف تسلم كلها في يومين ، و أشار إلى

[1]- علي محجوبي ، المرجع السابق ، ص 51.
[2]- العجيلي ، المرجع السابق، ص 110.
[3]- علي محجوبي ،المرجع السابق ص 51.

أن كل تأخير في الدفع يستوجب دفع خطية تقدر بألفي ريال في اليوم .و هدد بقتل الرهائن إذا ما وصل المقاومون هجوماتهم دون أن ينبه أهالي زغوان السلطة العسكرية لذلك.

و اضطر ذلك المقاومون إلى تغيير طريقتهم في القتال لعدم قدرتهم على مواجهة هذه القوات الفرنسية التي تفوقهم عدد و عدة و نظرا للإجراءات التعسفية التي اتخذت ضد مدينة زغوان ، فتخلوا عن طريقة الهجوم المباشر و اكتفوا بمراقبة المسالك التي تؤدي إلى القيروان لكي يمنعوا قوات الاحتلال من التقدم نحو هذه المدينة ، و هذا الإطار تمركزت قوات هامة من جلاص يقودها الحاج حسين بن مسعي في طريق الرابط بين مدينتي زغوان و القيروان ، و من جهة أخرى استقر أولاد إدير من جلاص و فرق من أولاد سعيد و سواسي و نفات بين سوسة و القيروان تحت قيادة **علي بن عمارة** الجلاصي [1]، كما تعهدت مجموعات أخرى من جلاص و **الهمامة** و و **ماجر** بمراقبة الطرق التي يمكن أن تسلكها القوات الفرنسية في زحفها على القيروان انطلاقا من مدينة تبسة بالجزائر .

أما السلطات لفرنسية فقد عملت من جهتها على تحقيق الهدف الذي رسمته لنفسها و المتمثل في إتمام احتلال الايالة بغزوها للقيروان التي تعتبر رمزا للمقاومة و موطنا فعليا لها. و قد أصر جول فير على احتلال هذه المدينة كي يضع حدا للحملة التي شنها الصحافيون على حكوماته في خصوص المسألة التونسية ، و يهدئ الرأي العام والنواب و ذلك قبل 28 أكتوبر 1881م، حتى يتسنى له إعلان هذا النصر لمجلس النواب المنتخب في شهر أوت 1881م ، أي في خضم الأزمة التونسية ‘ند افتتاح دورته الأولى و هذا ما يفسر تعبئة قوات الاحتلال لزحف على القيروان و فتح كل الطرق المؤدية إليها انطلاقا من زغوان و سوسة و حتى من البلاد الجزائرية .

4-1- سقوط القيروان

و في نهاية شهر سبتمبر 1881 استعدت قوات الفرقة الخامسة المرابطة لزغوان و الفرقة السادسة التي حلت منذ عهد قريب لسوسة ، للهجوم على المدينة ، في حين دخلت ثلاث وحدات تم إعدادها في تبسة و نقرين و الواد إلى البلاد التونسية من جهة الجزائر ، و 27 سبتمبر غادر

---

[1]- علي بن عمار قائد المقاومة أولاد عيار و ألتحق بالمقاومة بالوسط الغربي بطلب من حميدة يونس في معركة كدية ، رغم أنه كان مشاركا في مقاومة تستور

الجنرال ساباتيي زغوان متجها إلى الفحص في ثلاثة فيالق من المشاة و ستة مجموعات الفرسان ووحدة مدفعية ، و قد تمكنت قواته هذه من التغلب على المجموعات من قبائل رياح و أولاد عون و برقو كانت قد حاولت قطع الطريق على الغزاة ، ثم واصل الجنرال ساباتيي زحفه نحو الجنوب في 28 من شهر سبتمبر لمعاقبة المنهزمين و لم يعد إلى معسكر زغوان إلا بعد أن أمن الطريق المؤدية إلى القيروان [1].

و هكذا تمكن الفرقة الخامسة من بلوغ مدينة الفحص في 3 أكتوبر بدون أن تلقى أي مقاومة ، و في الحادي عشر من نفس الشهر توجه الجنرال " ساباتيي " في ثلاثة فيالق وسريتين وفصيلة من المدفعية إلى القيروان وعسكر بجهة " الأوكندا " ، ثم وقع تعزيز هذا المعسكر في 21 أكتوبر بقوات تابعة للفرقة السادسة التي تكونت بالمحمدية في 29 سبتمبر وأسندت قيادتها للجنرال " فيليبار " ، وقد وضعت كل هذه القوات تحت قيادة لوجيرو الذي كان قد وصل مكن تونس مع الفرقة السادسة صحبة الجنرال " سوسيي " القائد العام لجيش الاحتلال ، وبذلك تمكنت القوات الفرنسية من تأمين الطريق الرابط بين زغوان والقيروان واضطرت قوات المقاومة التي يقودها الحاج حسين بن مسعي والمكلفة بمراقبة هذه الطريق إلى التقهقر نحو القيروان والساحل بعد أن حاولت يائسة إيقاف زحف القوات الفرنسية التي تفوقها تفنيا وعدديا[2] .

ومنذ ذلك الوقت صار الساحل موطن المواجهة بين فصائل المقاومة وقوات الاحتلال ، وقد سبق أن حلت القوات الفرنسية بسوسة في بداية شهر سبتمبر 1881م يقودها المقدم " مولان" لمحاربة الجنود التونسيين الهاربين من جيش الباي الذين يسيطرون على هذه المنطقة ويحكمونها بدعم من السكان وقوات لا يستهان بها من المثاليث... وكانت الجيوش الغازية ترمي من وراء ذلك إلى القضاء على مركز من مراكز المقاومة بات يزعج السلطات الفرنسية وذلك لأنه بقربه من القيروان يحول دون احتلال هذه المدينة ، وقد ركز المستعمرون هجوماتهم الأولى على القعلة الكبرى التي تمثل أهم معقل للمقاومة في ساحل والتي برز رجالها في صورة خاصة بمعركة الأربعين ففي 14 سبتمبر 1881م وجهت السفن الرابطة بميناء سوسة حوالي 15 قذيفة نحو هذه القرية متسببة في نشوب عدة حرائق ، و في الغد توجهت القوات الفرنسية نحو القلعة الكبرى و شتت بعد الاصطدام دام نصف

[1]- علي المحجوبي ، المرجع السابق ، ص 53.
[2]- نفسه ،ص 53

ساعة تقريبا مجموعة الجنود التي أصبح يقودها على بن المبروك إثر وفاة ساسي سويلم ، ثم قذف المستعمرون أهم مراكز هذه البلدة ومنازلها[1] .

غير أن قوات المقدم " مولان " لقيت مقاومة عنيفة وهي تتوجه في 20 سبتمبر إلى بلدة جمال للسيطرة على هذا المعقل الآخر من معاقل المقاومة ، إذ اعترض سبيلها في بلدة الساحلين حوالي 3000 مقاوم ينتمون إلى عروش جلاص والسواسي والمثاليث وأولاد سعيد وبعض من الجنود الفارين من ثكنات جمال وبنان وعديد السكان الذين أقروا العزم على محاربة قوات الاحتلال ، واستبسل أبناء السواسي والمثاليث في الساحلين ، إلا أن هذه المعركة أضعفت المقاومة وأوهمت سكان الساحل فأحجموا بعد الهزيمة عن كل عمل مناوئ للجيوش الفرنسية ، ولم يبق في صفوف المقاومة إلا الأعراب الذين كانوا يصلون في حملاتهم إلى أسرار مدينة سوسة متحدين بذلك قوات الاحتلال[2] .

وللقضاء نهائيا على المقاومة بالساحل حل الجنرال " ايتيان " في فاتح أكتوبر 1881م بمدينة سوسة لقيادة فيلق الدعم السادس ثم دخل على رأس هذا الفيلق بلدة مساكن في 7 أكتوبر ، والمعروف أن سكان هذه البلدة كان لهم موقف تحفظي في سنة 1881م نتيجة القمع المسلط عليهم اثر انتفاضة 1864م[3] ، وان لم يجد الفرنسيون مقاومة تذكر في مساكن فإن عددا كبيرا من أبناء السواسي وجلاص والمثاليث هاجموا الفرق التي يقودها"مولان" من كل جانب وقد تم ذلك عند عودة الفيلق إلى سوسة ، وهكذا فان البدو لم يتركوا الساحة اثر هزيمة الساحلين وبعد تدعيم جيوش الاحتلال في منطقة الساحل بل نظموا صفوفهم وعادوا ليقطعوا على القوات الفرنسية الطريق المؤدية إلى القيروان ، ففي الفترة الفاصلة بين 19 و22 أكتوبر 1881م هاجم 1800 فارس و2000 من المشاة من جلاص وأولاد سعيد والسواسي والمثاليث والهمامة ونفات بقيادة علي بن عمارة الجلاصي قوات العقيد "لان " قائد الفرقة السابعة التي كانت متأهبة لاحتلال القلعة الصغرى .

بلغت المقاومة أشدها في 22 أكتوبر ، إلا أن علي بن عمارة أصيب في صدره ورأسه ثم مات متأثرا بجراحه ، ففت هذا الموت المفاجئ في عزائم المقاومين و فشلت قواهم وانهارت معنوياتهم وفتح طريق القيروان في وجه القوات الفرنسية الغازية ، فزحف الجنرال "سوسيي" في نفس اليوم على " المدينة " بعد أن تمكن من صد بعض أتباع الحاج حسين بن مسعي ، وتقهقر المقاومون ورجعوا إلى

[1]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 119.
[2]- محجوبي ، المرجع السابق ،ص 53.
[3]- لعبت مساكن دورا كبير في انتفاضة 1864 ، و انتقم منها أحمد زروق ممثل الباي بالساحل إثر ذلك انتقاما أنهك قواها و ماتزال آثارها قائمة الذات عند احتلال الايالة

المدينة التي تركوها من قبل " لاستقبال " الجيوش الفرنسية وكان على رأسهم الحاج حسين بن مسعي نفسه ، إلا أن محمد المرابط ، حاكم المدينة ، أغلق الأبواب في وجوههم .

ووصلت الفرقة السابعة التي يقودها الجنرال " ايتيان" إلى مدينة القيروان في السادس والعشرين من شهر أكتوبر 1881م وقد غادرها من تبقى من المقاومين في الخامس والعشرين من نفس الشهر ، أي قبل دخول القوات الفرنسية بيوم واحد، وحاصر المقدم " مولان" القيروان وأحاطها بعدد من جنود الخيالة فطاف الفرسان بالمدينة دون أن تطلق عليهم ولو رصاصة واحدة ورفعت السلطات المحلية الراية البيضاء فوق جامع عقبة معلنة بذلك عن خضوعها للقوات الغازية ، وهب محمد المرابط وأعيان المدينة لاستقبال المقدم " مولان" فقدمهم هذا الأخير للجنرال " ايتيان" .وهكذا استتب الأمر للفرنسيين فاحتلوا القيروان واستولوا على القصبة في الساعة الثانية من بعد زوال يوم 26 أكتوبر[1] .

ووصلت كتيبة " سوسيي " هي أيضا إلى القيروان في 28 أكتوبر بعد أن استسلموا جميع أولاد يحي لجنودها بالقرب من قرية الجبيبينة.وفي الغد وصلت كتيبة " فورجمول " التي تم إعدادها في تبسة بالجزائر وقد خاضت هذه الكتيبة في طريقها عدة معارك ضد مجموعات من جلاص والهمامة والفراشيش وماجر ، حاولت يائسة قطع الطريق المؤدية إلى المدينة . وما إن تمت السيطرة على القيروان حتى تفرق رجال المقاومة وتشتتوا فخضع أغلبهم لقوات الاحتلال الفرنسي في حين أبى بعضهم إلا مواصلة الكفاح فالتحقوا ب علي بن خليفة قايد نفات في الجنوب حيث ظلوا على عدائهم للمستعمرين و واصلوا مناوشة قوى الاحتلال ونهب السكان التونسيين الذين خضعوا لها .أما البعض الآخر فقد فضل الهجرة إلى طرابلس ، في انتظار تدخل القوات العثمانية الذي مافتئ فريق طرابلس يعدهم به ، إلا أن حلمهم هذا قد تبخر مع مر الأيام فأذعنوا بدورهم للسلطات الفرنسية حتى يتمكنوا من العودة إلى ديارهم. وهكذا فلم يصمد في وجه الغزاة سوى قايد نفات علي بن خليفة وبعض أتباعه إلى حين وفاة هذا القايد في أواخر سنة 1884م ، وكان موته إيذانا بانتهاء المقاومة وبرضوخ كامل سكان الإيالة للهيمنة الفرنسية [2].

ويتضح مما تقدم ذكره أن مقاومة التونسيين للاحتلال كانت نابعة بالدرجة الأولى من الجبال والبوادي والأرياف ، فأبناء القبائل وكذلك جزء كبير من سكان القرى هم الذين لعبوا دورا رئيسيا في

[1]- محجوبي ، المرجع السابق ، ص 54.
[2]- محجوبي ، المرجع السابق، 55.

هذه الحركة ، فكانت قبائل بني خمير و وشتاتة ومقعد وجلاص والهمامة ونفات والمثاليث والفراشيش وأولاد عيار قد برزت في مواجهة العدو ، كما كان الجنود الذين هربوا من جيش الباي للالتحاق بالمقاومة من أصل قروي ينتسب جلهم إلى الساحل وخصوصا إلى القلعة الكبرى وبنان وجمال وقصور الساف .

أما سكان المدن كبنزرت والقيروان والكاف وباجة وغيرها...فقد استسلموا للعدو بدون مقاومة ، ولم تلق سلطات الحماية مقاومة تذكر في تونس العاصمة باستثناء المحاولات التي قام بها العربي زروق رئيس بلدية الحاضرة ، وإن يجدر بنا الإشارة أن جيش الاحتلال قد أمسك بطلب من محمد الصادق الباي عن اقتحام العاصمة تجنبا لما عسى أن يحدث من اضطرابات و قلاقل و ذلك حتى شهر أكتوبر 1881م و قد ذكرت السلطات الفرنسية أن المدن الساحلية الثلاث سوسة و المنستير و المهدية هي الوحيدة التي لم تقاوم قوات الاحتلال في جهة الساحل[1] .

أما سفاقص و قابس فقد قاوم أبناؤها بكل تأكيد القوات الفرنسية ، فلم تسقط هاتان المدينتان في أيدي العدو ، كما بينا- سلسلة من المعارك العنيفة الدامية . إلا أن صمودها يعود خاصة إلى دعم القبائل المجاورة كالنفات و المثاليث و بني زيد و ورغم التي شكلت حجر الزواية لهذه المقاومة و الجدير بذكر أن هذه القبائل قد تحالفت مع سكان المنزل و شنني بقابس و مع الطبقات الكادحة السفاقصية التي لعبت دور كبير في المقاومة و تكبدت خسائر جسيمة في الأرواح من جراء نيران القوات الفرنسية.

و تعود مقامة السكان التونسيين لقوات الاحتلال – رغم تقاعس حكومة الباي ثم تواطؤها مع الأجانب ورغم الإمكانيات المحدودة – أولا و بذات إلى غيرة الأهالي على بلادهم ناجمة عن التعلق الطبيعي بمسقط الرأس ، و هذا الشعور الوطني الغريزي الذي يختلف عن الشعور القومي بالمفهوم العصري هو في نظرنا العامل الأساسي الذي الدفع بالقبائل التونسية إلى تجاوز اختلافاتها و الاتحاد اللدود على بلاد مشتركة ، رغم الطابع القبلي الذي يطغى آنذاك على المجتمع لتونسي واعية بالانتماء إليها كما كان ترد الوضع المادي لجل سكان الايالة من جراء النظام الجبائي التعسفي الذي تفرضه عليهم الحكومة التونسية قد جعلهم يخشون تدهور وضعيتهم في حالة انتصار الاستعمار الفرنسي الذي هو نظرا لإمكانياتهم الهائلة أكثر صرامة و بالتالي أكثر جورا من حكم الباي

[1]- نفسه ، ص 55.

خصوصا و أن الكثير من التونسيين يعلمون عن طريق تجربة الجزائر بحكم الجوار و تواجد الجالية الجزائرية بينهم طبيعة النظام الاستعمار الذي قهر الأهالي في هذه البلاد و استولى على قسط كبير من أراضيهم ، و قد أثبتت صحة هذه التخوفات الإجراءات التي اتخذها جيش الاحتلال إثر دخوله البلاد التونسية كفرض غرامة الحرب و مطالبة الأهالي بتسديد الضرائب المتبقية [1] .

و يغلب الخوف من الهيمنة الفرنسية على سكان الجبال و البوادي و الأرياف و ذلك لضيق حاجاتهم و عدم قدرتهم نظر لفقر مناطقهم على تسديد ضرائبهم ، فكانوا كثير ما يرفضون هذا النظام الجبائي التعسفي و يثورون ضد الباي لتخفيف من استبداده ، كما كانوا ينهبون من حين إلى آخر و خصوصا في سنوات القاحطة المناطق الحضرية الخصبة ، و من أجل ذلك كانوا يعتقدون أن كل هذه الامتيازات اكتسبوها بالقوة سيكون مآلها الزوال في حالة احتلال البلاد ، فلا جرم إذن أن تمثل القبائل التي توفر لها بحكم انتفاضاتها ضد الباي و غاراتها المتكررة على المدن – تقاليد حربية – العمود الفقري للمقاومة[2] .

أما خمول جل المدن أمام قوات الاحتلال فإنه يعود إلى نزعة الحضر إلى الخضوع لسلطة الحاكمة التي كانت آنذاك تدعو باسم الباي كافة السكان إلى الهدوء كما هو ناجم عن تمركز الفئات الغنية من كبار الفلاحين و الصناعيين و التجار في المدن ،و هذه الطبقات المحظوظة لا تريد الدخول في صراع غير متكافئ مع قوات الاحتلال حتى لا تتعرض مصالحها و ممتلكاتها و أمنها للخطر ، و يعود هذا الخمول إلى خوف الحظر من عمليات التي قد يقوم بها الأعراب خلال الفوضى التي تتولد حتميا من حالة الحرب .فكانت إذ تناقضات التي تطبع العلاقات القائمة بين البدو و الحضر قد طغت على التناقضات التي ستنجر حتميا من الاحتلال الفرنسي [3].

و لم يكن الوازع الديني خلافا للرأي الشائع في ذلك العهد بفرنسا العامل الوحيد الذي يقود المسلمين في كل أعمالهم و الذي يشكل بالتالي الدافع الأساسي للمقاومة. و قد دفع تطور الوضع بالبلاد التونسية عندما تصاعدت حركة المقاومة إثر توقيع معاهدة باردو بعض هذه التصورات للحكومة الفرنسية التي كانت تعتقد أن إبقاء أمير مسلم على رأس البلاد سيعمل على تهدئة الأهالي الذين يرفضون طبقا للتعاليم الإسلامية الخضوع إلى الكافرين فالنفوذ الشكلي الذي احتفظ به الباي لم يعمل على تهدئة الأهالي الذين لم يغفروا له تسليم البلاد للأجانب ، و أصبح كما لاحظ. ذلك

---

[1]- محجوبي ، المرجع السابق ، ص 56 .
[2]- نفسه ، ص 56.
[3]- محجوبي ، المرجع السابق ، ص 57.

محرر جريد لتن دي لاموت في شهر فيفيري 1882 م جل رعايا الايالة ينظرون إلى محمد الصادق و كأنه فقد بلا ريب شرعيته[1] .

و قد غاب عن ذهن الحكومة الفرنسية أن هؤلاء السكان قد ثاروا 1864م ضد هذا الحاكم المسلم نفسه أي محمد الصادق باي ، بسبب سياسيته التعسفية و تجاوزات أعوانه . فكانت هذه النظرة الدينية تخفي على الحكومة الفرنسية واقع المجتمع التونسي الأكثر تعقدا . يث لم تكن المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي بالجهاد ضد النصارى ، فالطرق الدينية التي تعتبر آنذاك ركائز للإسلام في المغرب العربي لم تتصادم في غالب الأحيان مع المستعمرين بل ذهب بعضها إلى التواطؤ مع السلطات الفرنسية .

و يتضح ما ذكرنا سالفا من مقاومات شعبية للاحتلال أنها كانت نابعة من أوساط الأرياف ، إذا لعب دور الجوهري في الحركة الوطنية ، حيث كانت قبائل بني خمير و أولاد بوسالم و الفراشيش و أولاد عيار و ورتان و ماجر و جلاص و الهمامة و الزغالمة و نفات و المثاليث [2] .فقد عارضت الوجود الاستعماري .

رغم النتائج التي آلت إليها تلك المقاومة و التي تظهر منذ استعدادها لمواجهة الجيوش الفرنسية ، فإنه لابد من معرفة دور الطرق الصوفية فيها ، التي تعرف النفوذ الكبير في أواسط المجتمع التونسي ، حيث نرى توغل الطريقة القادرية بالكاف [3] ، الذي يتجاوز اولاد غانم ،و شارم و زغالمة حتى تصل إلى بنزرت [4] ، ورغم أن الإدارة (المراقب المدني) ببنزت رفض ترشح بشير بن حمود التابع لطريقة القادرية [5] ، و على ما أعتقد أن تلك المقاومات ما هي إلا ميولات و انتماءات لطرق صوفية لقبائل سالفة الذكر التي نظمت و أعدت بعض تلك المقاومات ، حيث نجد أن قبائل خمير تنتمي لطريقة الرحمانية

[1]- نفسه ، ص 57.
[2]- أنظر ملحق العجيلي ،رقم 5.
[3]- أنظر موضوع انتشار الطرق الصوفية في تونس
[4]- العجيلي،المرجع السابق 124.
[5]- بن حمود من تابعي زاوية البنا ببنزرت التابعة لطريقة القادرية ، و يعرف بانتمائه بالإدارة التركية .

و تعود بالنظر إلى الحفناوي بن مصطفى بن عزوز شيخ الزاوية الرحمانية [1] ، علي بن عيسى شيخ الرحمانية [2] ، و كذلك أحمد بن عبد الملك [3] و شيخ الرحمانية بقنطرة سليانة [4].

و يبدو أن الطريقة الرحمانية كانت وراء مقاومات خمير و عمدون ، و خاصة أن علي بن عيسى و أحمد عبد الملك هم صاحبي النفوذ الروحي في تلك المنطقة ، و مبادئه المناهضة للوجود الفرنسي في التراب التونسي . منه جهة أخرى فإن أولاد بوسالم الذين ينتمون لقادرية ، في حين تنتمي قبائل عمدون إلى الطريقة الرحمانية و لمعرفة دور الطرق الصوفية في المقاومات التي عرفتها منطقة الوسط لابد من الإشارة إلى انتماء قبائل المساهمة في هذه المقاومة و على حساب ما تطرق إليه في موضوع انتشار الطرق الصوفية بتونس نجد أن نفوذ الطريقة الرحمانية جريد التي تحت مشيخة مصطفى بن عزوز و التي كانت تصل إلى قبائل ماجر ، حيث زاوية محمد سيدي بن عمار [5] ، وزاوية سيدي عمر سماني [6] و زاوية يدي أحمد [7] ، كما أن الحاج الصالح هو مقدم زاوية القادرية بالفراشيش و هو صاحب شرارة اندلاع معركة 25 أكتوبر 1881 .

أما المقاومات التي عرفتها تلك المنطقة (صفاقس) تعرف قلة أتباع الطريقة القادرية و التجانية و الرحمانية ، إلا باستثناء الطريقة المدنية [8]،التي كانت لها علاقة بالأتراك الأمر الذي جعل السلطة الفرنسية متخوفة من نشر فكر جامعة الإسلامية [9] ، و هذا ما أدى بالإدارة الفرنسية إلى تضييق الخناق على الطريقة المدنية في إطار سياستها الرامية إلى تطويق الطرق المناوئة لها [10] . و إطار السياسة الفرنسية تجاه هذه الطرقة ، حيث عملت على كسبها ، بمنح عائشة [11] منحة مقدرة ب 23000في إطار تعويض خسائر تهديم نزلها ، مقابل تنفيذ عهده بتسخير نفوذ عائلتها في خدمة

[1]- مصطفى بن عزوز شيخ الزاوية الرحمانية بالجريد ، كما هو صهر لأحمد بن عبد المالك و الذي يعد تلميذه .

[2]- علي بن عيسى شيخ زاوية الطرقة الرحمانية بالكاف ، كما كان وراء تحريض و تشجيع القبائل لتصدي للجيوش الفرنسية

[3]- أحمد بن عبد الملك ولد سنة 1821 و توفي سنة 1921 و هو شيخ زاوية الطريقة الرحمانية بأولاد عون و بعد أسس زاوبة بالشط و التي تبعد ب حوال 16 كلم قرب تبرسيق .

[4] - العجيلي، المرجع السابق ص 126 .

[5]- زاوية سيدي بن عمار تأسست في جبل السمامة سنة 1856 م

[6]- سيدي عمر سماني تأسست ب سبيبية .

[7]- سيدي أحمد زاويته بكدية الحلفاء و التي تأسس في 1846 أنظر الملحق اسم القبيلة وطرق الصوفية التي تنتمي إليها .

[8]- الطريقة المدنية هي فرع من فروع الطريقة الدرقاوية و تنسب إلى مؤسسها العربي بن أحمد الدرقاوي من قبيلة زردل بالغرب الأقصى و هي فرع من الشاذلية التي تولدت عن الطريقة القادرية ، و الطريقة المدنية تنسب إلى مؤسسها ظافر المدني ، كما كانت لها علاقات وطيدة بالسلطان عبد الحميد (حكم بين 1909/1876).

[9]- الجامعة الإسلامية تهدف إلى توحيد ، تلم المسلمون على العقيدة الموحد مصدرها القرآن و السنة دون النظر أجناسهم و بلدانهم ، من أجل التصدي للأطماع الأوربية .

[10]- العجيلي ، المرجع السابق ، 137 .

[11]- عائشة هي أخت الشيخ محمد ظاهر المدني ، و أم شيخ زاوية المدنية لمدينة سفقص محمد بن عبد الله

الإدارة الفرنسية ، و كذلك إعفاء محمد بن عبد الله من الضرائب الحربية التي فرضت على مدينة أثناء سقوطها [1].

و هذا يدفعنا القول بأن الطريقة المدنية بمنطقة صفاقس لم تقوم بدورها تجاه الاستعمار الفرنسي ، نتيجة السياسة الفرنسية التي تتمثل بمنح الامتيازات و الأراضي و إعفائها من الضرائب بالإضافة إلى الدعم المادي و أن تلك المقاومات ترجع إلى التشجيع المعنوي من دعاة العثمانيين الذين أرسلوا إلى طرابلس الغرب ، و كلك بالنسبة لطريقة الرحمانية و القادرية لعب نفس دور بانتماء عائلتهاما إلى عائلات غنية مثل عائلة النوي و شعيبوني و الشرقي و الرزبي و الكراي [2].

أما فيما يخص المقاومات التي قامت في الجنوب فإننا نلاحظ دور الطرق الصوفية رغم انتشار إلا انه تتميز بالتباين المواقف من دخول الاستعمار بين مختلف زوايا الطريقة الواحدة ، في هذا السياق رأت السلطة الفرنسية بان القاضي عبد العزيز و الباشي علي الحبيب كانوا وراء تنظيم المقاومة و هما ينتميان إلى الطريقة الرحمانية و الطريقة القادرية . حيث أصبح أي تحرك في نظر الإدارة الفرنسية تقف وراء الطريقة القادرية أو الرحمانية ، و سنة 1883 قامت الإدارة الفرنسية بوقف شيخ زاوية الرحمانية بتمزغة بتهمة التحريض على الجهاد.

ومن المواقف السلبية لبعض الزوايا تجاه المقاومات السياسية نتطرق إلى محمد بن براهيم الكبير شيخ زاوية القادرية بنفطة الذي له علاقات وطيدة بالإدارة الفرنسية ، أما شيخ زاوية مدينة لطريقة الرحمانية كان يبدوا انه مؤيدا أكثر منه مناهضا للاحتلال الفرنسي و هذا حسب تصريح الإدارة الفرنسية نفسها [3] ، كما أستعمل قدور الميزوني شيخ الزاوية القادرية بالكاف سنة 1881 كل ما له من نفوذ على السكان تلك المدينة لحثهم على الخضوع لجيش الاحتلال .

الطريقة التيجانية التي يمتد نفوذها إلى البلدان المغربية الثلاث تتعامل مع القوى الاستعمارية بالجزائر و تعمل على أن يستسلم السكان إلى فرنسا . و التأييد لسلطة الفرنسية من خلال زيارة الشيخ سيدي محمد الصغير إلى تماسين و هذا قصد اطمئنان المقيم العام الفرنسي بتونس بولاء و انتماء الطريقة التجانية لها ، و هذا بالإضافة إلى إقالة الحاج أحمد من قبل شيخ مشائخها (الطريقة

[1]- العجيلي، المرجع السابق ، ص 138
[2]- نفسه ، ص 137
[3]- العجيلي ، المرجع السابق ، ص 142 .

التجانية) بالجزائر في مارس 1883م بعدما اكتشف استعدادات الحاج أحمد لشن هجومات على الجيش الفرنسي [1].

كما أن رجال المقاومة في مدينة صفاقس لم يضمروا العداء إلى جميع النصارى القاطنين بهذه المدينة بل عمدوا إلى مواجهة الفرنسيين دون غيرهم ، و كل هذا يدل على أن الوازع الديني لم يكن البتة المحرك الأساسي للمقاومة التونسية لاحتلال الفرنسي .

2- الطرق الصوفية و الحركة الوطنية :

تميزت علاقة الطرق الدينية بالحركة الوطنية بالعداء و النفور ، حيث اتخذت أشكالا متخلفة منها الصدام الأول الذي واجهت به هذه الطرق عبد العزيز الثعالبي و هو إحدى الشخصيات الأولى للفكر الإصلاحي للقرن العشرين بتونس [2]، كما انه لم يكن غريبا عن الأوساط الدينية ، حيث كان يتمتع بموسوعة معرفية بالدين و الفقه حيث تلقى تعليمه بجامع الزيتونة ، و أسس سنة 1896 جريدة سبيل الرشاد ، و سافر إلى تركيا ثم إلى الحجاز ثم إلى مصر حيث تشبع و زود بالأفكار

[1]- نفسه، ص 143 .

[2]- في نهاية القرن التاسع عشر ميلادي وبداية القرن العشرين تجمعت نخبة من المصلحين التونسيين حول جريدة "الحاضرة "-"الجمعية الخلودية"و"الجمعية الصادقية" وهذه النخبة ستكون فيما بعد "حركة الشباب التونسي" وسيكون عبد العزيز الثعالبي أحد عناصرها الفاعلة .
1-106

الإصلاحية ، ورجع إلى تونس سنة 1902 م ليواصل جولته الفكرية نحو الجزائر و المغرب سنة 1903م ، و رغم العداء المتواصل من طرف العلماء تجاه أفكاره ، إلا أن جلساته بمقهى التوتة بحي الحلفاوين بالعاصمة مع نخبة من شباب الزيتونة و شباب المدارس العصرية ، معروفة بنقاشها لبعض المجلات و الصحف الشرقية أبرزها مجلة المنار من مصر ، حيث في تلك المجالس كانوا يتطرقون إلى مسائل كثيرة تتصل بالإصلاحيين الدين و الاجتماعي ، و بدأ الناس يتلقطون من كلام الشيخ بعض العبارات الحادة في مسائل الأولياء و الكرمات و الخلاف بين الصحابة ، و هذا ما اغضب العلماء خاصة علماء الزيتونة و أصحاب الطرق القادرية [1]

و قد اثر هذا العداء كثيرا في نفسية الثعالبي ، مما جعله يشتكي من تخلف الحياة الفكرية بتونس ، و يعبر عن يأسه من إمكان إصلاح قومه ، فكاتب في هذا الصدد مجلة المنار في شهر مارس من سنة 1903 ، إلا أن هذا الجدال الحاد بين الثعالبي و الطرق الأخرى سنة 1904 ، توج بإقامة في شهر جويليا من نفس السنة ثم سجنه مدة شهرين ، حيث أن الثعالبي راح ضحية تحالف واضح بين شيوخ وفقهاء الإسلام الرسمي من ناحية و شيوخ الزوايا من ناحية أخرى ، فنسب له استهزاءه بالقرآن الكريم و سلبه من الفصاحة و البلاغة ، و نسبه الخليفة العادل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الضلال و الاضلال و الازدراء بأولياء الله ، و إن الإمام عبد القادر الجيلاني أحد أبناء الزنا الدجالين ، حيث جعلت هذه التهم على شكل شكاوي و تقدم بها إلى المحكمة الشرعية كل من عمر بن عجرة و حميدة كشك و البشير القماطي و الطاهر التوكابري و محمد بن سليمان العبدلي و محمد بن علي الشواشي و أخوه محمد الصالح بن إبراهيم و بكار بن حسين و الطاهر السعيدي [2].

و بناء على هذه الشكاوي جمعت المحكمة الشرعية فرعيها الحنفي و المالكي للنظر في هذا الاعتداء على المقدسات ، و في 16 جويليا مثل عبد العزيز أما محكمة الدربية بتونس التي أدانته بتهمة الاعتداء على الدين و أحداث الشعب و حكمت عليه يوم 23 جويلية من سنة 1904 بشهربين سجن. كما أن الثعالبي دافع عن نفسه و جاب قوى الإسلام الرسمي الفكر الإصلاحي لأنه من المصلحين لأنه من المصلحين من مثال أحمد خان بالهند 1817-1899 و جمال الدين الأفغاني 1839-1898 و محمد عبده بمصر 1849-1905 من ناحية . كما انه عرض الأسباب التي

[1]- جلول جربي ،أسس النهضة عندعبد العزيز الثعالبي ،رالة دكتوراه الدولة في العلوم الاسلامية ، جامعة الزيتونة ،1987-1988، ص 246.
انظر مقتطفات من الرسالة التي بعث بها عبد العزيز الثعالبي الى "المنار" الجزء الثاني ،المجلد السادس،في 14 مارس 1903.
[2]- القلم في 5 جويلية 1904.

جعلته عرضة لكراهية قضاة الإسلام و المفتين الذين رأو فيه خطرا و مساس لهيبتهم التي كانوا يستغلونها لكسب الربح ، و ليرد على تهمة إدخال الشعب بأن من وراء هذا هم قضاة الإسلام و شيوخ الزوايا [1] .

ان ما تطرق إليه الثعالبي بالنقد و التحامل ، مازال يمثل حلقة قوية و صلبة في وسط المجتمع التونسي سنة 1904 إلا أنها تؤكد في نفس الوقت أن وعيا جديد بدأ يشق طريقه داخل هذا المجتمع ، و رغم أن الوعي قليلا في هذه الفترة ، فإنه سيتطور و يتسع و يواصل معارضته للطرق الدينية باعتبارها سلوكا و مؤسسات تعرقل الوعي الوطني ، حيث عاد الجدل بين الفكر الإصلاحي و الطرق الدينية خلال العشرينات عن طريق جريدة الليبيرال باللغة الفرنسية كانت مخصصة للتهجم الصريح على الطرق الدينية ، و كانت عبر سلسلة من المقالات ، حيث تناول المقال الأول من هذه السلسلة عبر سلسلة من المقالات ، حيث تناول المقال الأول من هذه السلسلة تحت عنوان الطرق الدينية أصلها تنظيمها ، قانونها العام ، متخذا التعليم بصفة عامة و التعليم الابتدائي الإجباري بصفة خاصة و ذلك لإنقاذ الجماهير و تحطيم سلطة رؤساء الطرق و منع الناس من الذهاب نحو غسالي الأموات.

أما في المقال الثاني تطرق إلى التحدث عن الدور السياسي للطرق و تسليط الضوء و التركيز على سياسة التعامل الايجابي و الانتهازية التي مارستها مع الاستعمار إن كان ذلك بالجزائر او بتونس. منها تحالف التيجانية مع فرنسا لتكسير و عرقلة مقاومة الأمير عبد القادر و كذلك إحدى فروع القادرية إعانة الاستعمار في بسط نفوذه على الصحراء الجزائرية ، وكذلك تسلل الفرنسيين و الايطاليين و إنظمامهم إلى الطرق بهدف تسهيل عملية استعمار تونس ، و كذا دور سيدي قدور الذي ذهب إلى ملاقاة القائد العسكري لوجيرو عند دخوله إلى الكاف ، حيث تظاهر سيدي قدور بالتفكير بأنه رأى شيخهم الجليل سيدي عبد القادر يمسك بمقود حصان الجنرال الفرنسي و يأمرهم بالرجوع دون مقاومة[2] .

كما أن السلطة الفرنسية كانت تخصص امتيازات مادية للطرق ، إلا أن هذا الواقع سائد نحو الاختفاء بفضل الفكر التحرري للقرآن ، و هذا مؤشر يدل على بداية تغير موازين القوى بالبلاد لصالح الأفكار الجديدة التي بدأت تزحف بصفة موازية للقضاء و لتقهقر الطرق.

[1]- جريدة الصواب ليوم 22 جويلية 1904.
[2]- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 111.

أصبح الفكر الإصلاحي في العشرينات من هذا القرن ناقدا بنسبة هامة في صلب المجتمع ، لا سيما المجتمع الحضري حيث كان الفضل لهذه الأفكار في تأسيس حزب الحر الدستوري التونسي ، و ذلك منذ مارس 1920 ، فإن سنة 1924 أصبح يضم خمس و أربعين ألف من المنخرطين ، إضافة إلى الإعداد العقيدة الذي ينتمون إلى سياسته و أفكاره بدون تسجيل أنفسهم[1] .

لقد لعب الحزب الدستوري دورا هاما في مكافحة الطرق على ميدان الصراع السياسي ، لكن لم يخرج هذا الصراع عن الميدان الديني حيث قاومها من منطلق الفكر التحرري للقرآن. و قد توصل هذا الجدل عن طريق أحمد توفيق المدني لأن هذا الرجل كان مناضلا نشيطا في صلب الحزب الدستوري قبل نفيه إلى الجزائر ، و اعتبار ما جاء في مذكراته شهادات مباشرة عن الصراع الملموس و المتواصل للفكر الإصلاحي ضد الطرق فيقول أحمد توفيق المدني : " إن فرنسا قد كونت حول سلطانها الاستعماري الفضيع ، سياجا خالته قويا متينا مؤلفا من شيوخ الطرق الصوفية ، و لهم سلطان لا ينكر على الدهماء ، تعدهم و تمنيهم و تبذل لهم المرتبات و الأموال ، يتكلمون كلامها و يبشرون بأعمالها و يؤيدون وجودها " ، و هذه إدانة سياسة.

أما إدانته الدينية للطرق قائلا : " إن الإسلام لا يرضى لكم أن تتفرقوا طرائق قددا حول طرق صوفية مضلة ظاهرا الرحمة و و باطنها من قبلها العذاب فرقت الشعب و شتت الشمل و مزقت عدى الدين حتى أصبح كل منتسب لطريقة ما ، و ما أكثر الطرق ، يلعن و يسب و يشتم بل يخرج من الدين كل المنتسبين للطرق الأخرى " ، و هذا من أجل وضع الأصبع على الدور الخطير الذي تلعبه الطرق في عرقلة اكتساب الوعي الموحد لأفراد المجتمع لمواجهة الخطر الاستعماري[2].

لقد امتد الجدل سنة 1922 على صفحات جريدة " المستقبل الاجتماعي " التي كانت لسان حال المجموعة الشيوعية الأول بالبلاد ، وكانت مكونة من طرف ثلاثي مكونة من عبد العزيز الثعالبي ، الهادي السبعي و سيزار بن عطار ، وهو خليط سياسي و عرقي حيث امضوا مقالات تتلخص في مكافحة التعصب الطرقي بالفلسفة النيرة و الكونية للإسلام و القرآن .و هذا التقارب بين الدستورين له سببينن أساسين[3] :

– أولهما أن الشيوعيين خلال هذه الفترة اهتموا بالقضية الدينية بصفة عامة ، و خصصوا لها البعض من تفكيرهم في إطار إشكالية التوفيق بين الشيوعية و الدين .

1- نفسه ، ص 112.

2- لطيفة ، المرجع السابق ، ص 113.

3- نفسه ، ص 114.

– أما السبب الثاني فيكمن في أن هذا الالتقاء وقع على الأساس التحرري الذي كان يناضل من أجله كل واحد من هذين الطرفين ، و الوعي الموحد بأن الطرق الدينية كانت تمثل حاجزا أما التحرر من الهيمنة الاستعمارية

إن النظر إلى أهم حلقات المعركة الوطنية ابتداءا من العشرينات ، نلتمس التناقص الكبير بين السلوك السياسي للنخبة الوطنية الجديدة و بين سلوك الطرق الدينية التي انعدم فيها كل وعي بالقضية الوطنية ، حيث كانت تقف في كل مناسبة وراء السياسة الفرنسية ، و حين وقف الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1922 معارضا ورافضا إصلاحات المقيم العام لوسيان سان لأنها تكريس للهيمنة الاستعمارية ، أما الطرق فنجدها تساند هذه الإصلاحات و تباركها ، حيث في شهر نوفمبر من سنة 1922 توجه وفد من الأعيان و شيوخ الطرق من من بينهم سي صالح بن شعبان شيخ مشايخ الطريقة القادرية و سي قاسم الشريف شيخ مشايخ العيساوية و سي مختار الخلصي رئيس مقدمي القادرية ، إلى منزل المقيم العام ، و قابلوا زوجته ليقدموا لها عبارات الشكر على انجازاتها الخيرية ، فحين عبروا لها عن قلقهم إزاء دعوة زوجها إلى مهام أخرى لأنهم سيحرمون من منافع النتائج العظيمة لعمل هذا المصلح الكبير .

وقد تواصل هذا التناقض بين الطرفين حمل قضية التجنيس خاصة في الوقت الذي استرجع فيه الحزب الدستوري أنفاسه النضالية التي ضعفت وتناقضت بسبب التعسف الذي لاقاه من السلطات الاستعمارية على اثر مواقفه من أزمة افريل 1922م ومن إصلاحات المقيم العام "لوسيان سان" ،وفي الوقت الذي رجع فيه هذا الحزب إلى الساحة السياسية بقوة على أساس معارضته لسياسة التجنيس الفرنسية ، وفي هذا الظرف عرف كيف يوظف الشعور الديني ،ويقف ضد قانون 20 ديسمبر 1923م الخاص بهذه القضية[1] مشيرا أن التخلي عن الجنسية التونسية هو ازداد ديني .

بينما أصحاب الطرق الدينية إلى جانب تواطؤ رجال الدين الرسمي ،يلازموا الصمت حول هذه القضية الحساسة ،كما تأكد السلطات الاستعمارية بعد كل التجارب سعت بصفة صريحة ومباشرة إلى توظيف الطرق ضد حركة دينية أخرى وذلك بتنظيم محاصرة حركة ابن باديس في الجزائر ،أن شيوخ زوايا مختلف الطرق بجهة قفصة تلقوا استدعاءات من الجزائر العاصمة ممضاة من طرف

[1]- في اطار تخوفاتها من عواقب تضخم عدد الجالية الاطالية بتونس ،وبهدف استعاب النخبة المثقفة والمفرنسة التونسية وضعت السلطة الاستعمارية قانون 20 ديسمبر 1923 الذي يفتح باب التجنس امام العناصر الاجنبية المقيمة وايضا امام التونسيين .

الشيخ مصطفى قاسمي شيخ الرحمانية لحضور اجتماع لشيوخ الطرق ، من اجل تنظيم مقاومة الطرق للنزاعات المعادية للزوايا لحزب العلماء الذي يتزعمه المحرض ابن باديس .

إن ما يحدث لحركة ابن باديس بالجزائر ، يعني الحركة الوطنية بتونس بصفة غير مباشرة ،إلا أن مشاركة الطرق الدينية التونسية جملة ضد حزب العلماء بالجزائر لها معانيها بالنسبة لتونس وذلك من ناحيتين :

الأولى تمثلت في أن ابن باديس ومن ورائه "جمعية العلماء الجزائريين " ،كانت لها علاقة وثيقة مع النخبة الوطنية بتونس [1] حيث زار تونس سنة 1933م وسنة 1937م لملاقات القادة الوطنيين بالايالة ،فحين كانت له [2]مقابلات عديدة مع مدير صحيفة "الزهرة " ومدير صحيفة "النديم " ومدير صحيفة "تونس " علي كاهية عضو الهيئة التنفيذية للدستور القديم وعبد العزيز الثعالبي صديقه الحميم ، كما زار تونس[3] سنة 1938م على اثر رفع حالة الطوارئ عنها بعد أحداث 9 افريل وهذا كله دليل على العلاقات المباشرة والوثيقة بين الحزبين .

أما من الناحية الثانية ،فجمعية العلماء الجزائريين تهمنا من حيث هذا النوع من الالتقاء الفكري الذي جمعها بحزب الثعالبي حيث هذا الالتقاء يفسر بدوره الزيارات المتعددة لابن باديس إلى تونس ، يتمثل في اعتماد كل منهما على الفكر الإصلاحي ، وان كانت جمعية العلماء الجزائريين قد ركزت سياستها الإصلاحية على التربية الدينية وعلى الفكر الديني بأكثر عمق مما فعل حزب الثعالبي بتونس .

وبناء على هاتين النقطتين يمكن اعتبار مشاركة الطرق الدينية التونسية ضد ابن باديس هو نفس معطيات هذه المعركة بين الفكر الإصلاحي المناهض للاستعمار و الإسلام الطرقي الذي استسلم له فقد بلغ الصدام بين ابن باديس باعتباره زعيما سياسيا مصلحا وبين الشيخ ابن عليوة المستغانمي ، شيخ الطريقة العلوية ،حيث اتهم كل واحد منها الأخر بأنه يحاول تدبير اغتياله [4]، وهذا الصراع مؤشرا عن قوة الفكر الإصلاحي ،وهذا ما دفع بالسلطات الفرنسية إلى اختيار النظام الطرقي لتحقيق التوازن ،وذلك بمساهمتها في تنظيم المؤتمر الموجه ضد حركة ابن باديس ،وتوظيف الطرق الدينية مرة أخرى في إنجاح المناورات الاستعمارية ،حيث أن هذه المؤسسات وضعت نفسها في الجنب المعادي للحركة الوطنية .

---

[1]- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 118.

[2]- نفسه ، ص 118.

[3]- نفسه ، ص 118.

[4]- Berque(j) : Le Maaghreb entre deux guerres , coll , esprit, éd, seuil, paris, 1962.

وهذا السلوك السلبي قد استمر بتونس خلال أدق المناسبات ففي سنة 1930م ، انعقد مؤتمر الافخارستي ،ثم الاحتفال بمائوية الاحتلال الفرنسي للجزائر من ناحية أخرى ثم سنة 1931م الاحتفال بخمسينية احتلال تونس ،وهذا له آثار عميقة على المشاعر الدينية للأهالي واحتداد الشعور الوطني بالبلاد [1]، فحين كانت النخبة الوطنية الجديدة تبحث عن طرق الخروج من الحصار الذي ضرب حولها من طرف الإدارة الاستعمارية[2].

كما أن أصحاب الزوايا يعلنون استنكارهم لتحركات الدستوريين والوقوف إلى جانب الإجراءات التي اتخذتها الحكومة ضدهم ،حيث أن شيخ الزاوية التجانية ببوعرادة بعث تلغراف إلى المقيم العام "بيروتون" قائلا "أن أتباع الطريقة التيجانية بجهة سوق الخميس ،المجتمعين اليوم بهنشير سيدي الرماني بمنزل عميد المقدمين سي الحاج علي بن محمد بن سالم ،تحت رئاسة زعيمهم الشيخ سيدي شريف التجاني ،شيخ زاوية بوعرادة يعلنون استنكارهم لتحركات الدستوريين الجدد [3]، ولكل عملاء الفوضى، ويوافقون كل الإجراءات التي اتخذتها الحكومة بهدف إيقاف الاضطراب والسماح للعناصر السلمية من السكان بالعمل في الأماكن تحت حماية فرنسا ،كما يعلنون ولائهم الكامل وثقتهم المطلقة تجاه شخصكم واتجاه فرنسا حاميتنا ".

كما أن ابن شيخ الزاوايا القادرية بالقصور من منطقة الكاف المسمى عبد الرزاق بن الشيخ عبد الرحيم يشهد [4]على التعامل المفرط لعمه الشيخ السابق لنفس الزاوية مع الاستعمار ،حيث أن عمه بعث يرسالة إلى المقيم العام "ديهوتكلوك" يؤيده في سياسته ،ويعلن فيها انه ضد حركة دستورية ،وهكذا نرى الطرق الدينية تعبر عن انحازها للسياسة الاستعمارية وعن تبادلها العداء مع النخبة الوطنية بصفة متأكدة وواضحة .

أن الصراع بين النخبة الوطنية [5]من ناحية والطرق الدينية من ناحية أخرى هو صراع بين الوعي الجديد الذي هو نتاج مجتمع بدأت تنضج فيه قوائم الأمة المنسجمة ،وبين وعي يعود إلى قرون عديدة خلت ،كرسته الطرق عن طريق التفكك الاجتماعي والتشتت التنظيمي علاوة على أن

---

[1]- في سنة 1932 رجعة الى الميدان ةبكل حدة الاضطرابات حول قضية التجنس كما تدعمت الحركة الوطنية بانضمام جماعة "العمل التونسي "التي كان يتزعمها الحبيب بورقيبة الى الزب الحر الدستوري التونسي خلال مؤتمر انعقد في شهر ماي سنة 1933م.

[2]- في ماي سنة 1933م منعت السلطة الاستعمارية الصحف الوطنية الصادرة باللغة العربية ،وفي شهر اكتوبر من سنة 1934 م بعثت الاقامة العامة الى كل المسؤولين بالجهات بمنشور ينبههم الى استعمال الدستورين لمنابر المساجد للقيام بدعايتهم ودعوتهم الى الوقوف دون ذلك.

[3]- خلال المؤتمر الخارق للعادة للخزب الحر الدستوري الذي انعقد يوم 2 مارس من سنة 1934م بقصر هلال ،برز الانشقاق الذي تجسم في فرز قيادتين لنفس الحزب وقد اطلق الملاحظون الاجانب تسمية "الدستوريين الجدد"على المجموعة المعروفة بمجموعة "المكتب السياسي".

[4]- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 121.

[5]- نقصد بالنخبة الوطنية ،الحزب الدستوري القديم،اذ هو الذي بادر وقاد المعركة ضد الطرق . اما الحزب الدستوري الجديد فلم نسجل له دورا هاما في هذا الصدد ويعود ذلك الى سبب بسيط في ان هذه المعركة قد بدات تنطفي في الثلاثينات وتضعف بضعف الطرق نفسها .

الاستعمار عرف كيف يعمق هذا التشتت . لقد عجزت الطرق على أن تأخذ على كاهلها القضية الوطنية منذ دخول الاستعمار إلى آخر لحظة حيث شهدت تقهقر في سيطرتها على المجتمع التونسي ،وعجزها في استيعاب التحولات السياسية والاجتماعية الجوهرية التي طرأت على البلاد ،حيث بقيت تكرس نمط اجتماعيا قديما وتقليديا ،فحين مجتمع عرف نمط وظروف جديدة وتأقلما آخر ،ومن هنا كان تهميش الطرق .

فإلى بداية العشرينات بقية الطرق تؤطر أفراد المجتمع على أساس قبلي ،كما أنها تتكاثف بصفة خاصة بالمناطق الريفية والقبلية من البلاد ،لتلبية حاجاته الضرورية في التوازن ،فكانت متواجدة هناك لكي تتمكن من إعادة إنتاج نفس النمط الاجتماعي ،ونفس الوعي العشائري المتسم بالتناحر ،فحين أصبح مجتمع في اشد الحاجة إلى الانسجام والترابط لمواجهة تناقضات واقعه الاستعماري، كما أن الطرق أحيانا تمارس هذا التناحر فيما بينها من اجل الاحتكار ،مثلا الصدام الحاد بين القادرية والتجانية[1] بتاطاوين ،حيث أن الطرق التجانية سادها التعصب ،حيث أن كل من يجدوه طريقته قادرية أو غيرها يتمكنون به ويرفعونه بين يدي سي سعد ويجتمعون به ويشتمونه في جميع أهاليه .

كما أنهم ينهبون الناس وأرزاقهم ،ويدعون جميع الناس قرامطة غير مسلمين ،ويهود وأفضل إضافة أنهم كانوا يقولون لكل واحد لم يبق ولي ولا صالح إلا سيدي احمد التيجاني وهو الذي يشفع في الخلق وهو الذي يفك من النار .اما سنة 1931م ازدادت الأحداث وامتدت إلى جرجيس حيث كان القاضي التجاني محمد بن عبد الغفار يصرح بان الذين لا ينتمون إلى الطريقة التجانية ليسوا مسلمين وأنهم عملاء الشيطان ،وجراء ذلك قام طلبت الزيتونة اصيلوا جرجيش في ديسمبر سنة 1932م من إنشاء لائحة وقدمت إلى المحامي الحبيب بورقيبة ليسلمها بدوره إلى وزير العدل للحكومة التونسية ،حيث يستنكرون فيها الفوضى التي قام يها أتباع التجانية بالبلد [2].

مما جعل السلطة الاستعمارية أن تسارع وتضطر إلى استدعاء الشيخ احمد ابن محمد العيد ،شيخ الطريقة ،بتماسين من الجزائر وذلك من اجل تهدئة العقول ،وهو ما حصل بعد عناء طويل سنة 1937م [3].إلا أن الأحداث عادت إلى الساحة سنة 1938م بمناطق التراب العسكري

---

[1]- تميزت التجانية عن الطرق الاخرى في انها كانت تمنع على اتباعها الانتماء الى طريقة اخرى سواها ،لذلك لا نشك في صحة ما جاء في الرسالة الموالية من تشكيات حول غرطسة اصحاب الطريقة تجاه الاخرين. .

[2]- Lieutenant D'Arbaumont : De L'infanterie coloniale – la confrérie tejania- situation et rol en tunieis – (étude dactylographiée) 1941. p 25.

[3]- Ibid, p 25.

بالجنوب وذلك بين أتباع الرحمانية والتجانية[1] ، كما أن السلطة الاستعمارية بقيت في محاولة السيطرة على الوضع وذلك خوفا من الفوضى إلا أن السلطة الاستعمارية كانت في كل مرة تحقر الحدث وتحيطه بنوع من التعتيم[2] وذلك من اجل تغطية الوعي السلبي لدى الطرق لأنه يجعل في صلب المجتمع الانشقاق والانقسام ،وهذا ما يسهل على الاستعمار تمرير سياسته وخدمة مصالحه بالبلاد .

كما أن تحرك طلبة جامع الزيتونة أصلي جرجيس وتعاملهم مع الحبيب بورقيبة هو تعبير حول القضية الوطنية وهذا ما جعل الطرق في وضع معزول ،حيث أن الطلبة جامعة الزيتونة تعبيرا عن تضامنهم ووقوفهم إلى جانب القضية الوطنية قد التحقوا في العديد من المناسبات بالحركة الوطنية وشاركوا في البعض من حلقاتها بصفة نشيطة توظيفا لثقافتهم ولوعيهم الديني [3]، وهذا لا يعني أن سكان المناطق التي يسيطر عليها الواقع الطرقي يفتقرون إلى الوعي الوطني ،بل قاوموا بشجاعة وبضراوة الدخول الاستعماري منذ لحظاته الأولى ،وذلك بالتحالف مع بعض المدن وبزعامة شخصيات لها تجارب سياسية ووعي قبلي ،إلا أنها اتسمت بالهشاشة وسرعة الاندثار أمام الآلة الاستعمارية ،فحين أصبحت الطرق معادية للحركة الوطنية وآلة في يد السلطة الاستعمارية ،حيث استعملوها للسيطرة على المجتمع الريفي من اجل تعميق التوازن اللازم للحفاظ عليه لكي لا يكون مجابه للاستعمار مثلما كان الحال في صلب المجتمع الحضري.

وفعلا فإلى بداية الثلاثينات ،كانت البلاد منقسمة حول القضية الوطنية إلى فضاءين :فضاء حقق اندماجه وانخراطه في مسار الحركة الوطنية بصفة مبكرة وهو أساس القضاء الحضري ،بينما الفضاء الأخر يعني متخافا ومنكمشا عن ذلك وهو بالذات قضاء السيطرة الطرقية .ونظرا لتخوف الاستعمار من مؤهلات الوسط الحضري في التمرد ، سعى إلى تضخيم اصطناعي لدور الطرق بالمدن حيث ارتفع عدد الزوايا القادرية فيما بين سنتي 1887م-1925م[4]

- من 5 الى 38 بتونس العاصمة .
- من 4 الى 10 بصفاقص .
- من 3 الى 11 بسوسة.

[1]- I bid, p 26.

[2]- من ذلك موقفها من الصراع بين التجانية والقادرية بتطاوين واعتبارها ان ما حدث لا يستحق أي حسم.

[3]- شارك طلبة جامع الزيتونة في الاضطرابات والتحركات التي شهدتها البلاد على اثر انعقاد المؤتمر الافخرستي ،من ذلك الاضراب الذي قاموا به احتجاجا على قضية التجنيس سنة 1932م.

[4]- لطيفة الأخضر ، المرجع السابق ، ص 126.

أما ارتفاع عدد زوايا العساوية [1]لنفس الفترة.

- من 10 إلى 15 بتونس العاصمة.
- من 12 إلى 17 بصفاقس.
- من20 إلى 41 بسوسة.

إن لم تدل الوثائق على الظروف المضبوطة التي برزت فيها كل هذه الزوايا بأهم مدن البلاد ،إلا أننا نلاحظ بالنسبة لجهة صفاقس مثلا ،أن الزاوية الوحيدة التي تنسب إلى الطريقة الرحمانية ،قد ظهرت بقرية حينيانة خلال نفس هذه الفترة التاريخية وكان ذلك على ارض منحها نائب الشركة الفرنسية الفلاحية إلى الشيخ محمد ابن الحاج الجلاصي[2] .

إلا أن فشل محاولات الاستعمارية خاصة في ضعف نسبه أتباع الطرق بالمدن حيث لم يتجاوز سنة 1925م ،12.1بالمائة من مجموع العام لأتباع الطرق الأربعة الأولى ،لذلك في كل من مدينة تونس العاصمة وسوسة وبنزرت و صفاقس معا ، هذا الفشل يدل على أن عمليات التطعيم والمراوغة لا معنى لها عندما يكون الواقع الموضعي يدفع في اتجاه التمرد على الاستعمار ومقاومته ،لذلك بقدر ما كانت عملية انخراط واندماج المجتمع الحضري في المعركة الوطنية مبكرا بقدر ما بقي المجتمع القبلي مهمشا عنها إلى فترة صعبة .

---

[1]- نفسه ، ص126 .
[2]- لطيفة ، المرجع السابق ، ص 126.

خاتمة

لقد حاولت من خلال هذه الدراسة أن أتتبع مراحل تطور الطرق الصوفية و خاصة الطريقة القادرية و التجانية في البلاد التونسية منذ ظهورها و بروزها في البلاد ، و أهم مناطق نفوذها ، و السياسة الفرنسية تجاهها و رد فعل الطريقة التجانية و القادرية ، و هذا بالإضافة إلى موقفها من قضية الوجود الفرنسي ودورها الاجتماعي و الاقتصادي و حتى السياسي المطالبة به من قبل المجتمع المدني .

و من خلال هذا نجد أن الطرق الصوفية التونسية و خاصة الفترة التي أتناولها في بحثي أنها طرق دخلية على البلاد و كان مصدرها الجزائر و المغرب الأقصى و انتشرت عن طريق تونسيين و رحالة (جزائريين ن مغربيين) . و رغم السياسة التي رسمتها السلطة الفرنسية للقضاء و تحجيم الطرق الصوفية نظرا لقوتها و بسط نفوذها داخل المجتمع التونسي ، هذا بالإضافة لقوتها الاقتصادية ن و هذا ما يشكل خطورة على الوجود الفرنسي ، و خاصة أن هذا الأخير له تجربة مع المقاومات الشعبية بالجزائر ، التي كانت مصدرها و نواتها الأولى الطرق الصوفية مثل مقاومة الأمير عبد القادر و ثورة أولاد سيدي الشيخ ..إلخ .

كما أنني أرى بان الطرق الصوفية التونسية وقعت في فخ الإغراءات الفرنسية و الدخول في تقديم خدمات تصب في صالح السياسة الفرنسية ن الذي أنجر عليه منافسة بين الطرق الصوفية لتقرب من السلطة الفرنسية و هذا ما يشير إلى قلة الوعي السياسي .

لقد كان الموقف العام للطرق الصوفية على مستوى البلاد ، بالموقف السلبي ، و ذلك باتخاذ سياسة المهادنة أثناء الدخول الجيش الفرنسي على البلاد ، و خاصة الجهة الشمالية الغربية و هي في الحقيقة تمثل مركز ثقل الطرق الصوفية ، و أثناء انتظار الجيش الفرنسي لوصل المدد لإخضاع بعض المدن ، في حين كانت هناك مقاومات شعبية في صفاقس و القيروان .

حيث كانت سلبية الطرق دون فتح عدة جبهات في الوقت احد ضد الجيوش الفرنسية و إجبارها على تشتيت قواتها ، حين كانت الطريقة القادرية بالجزائر نواة المقاومات الشعبية مثل مقاومة الأمير عبد القادر .

كما أنني وجدت بعض مواقف ايجابية لبعض مشايخ الزوايا التابعة الطريقة القادرية أو التيجانية ن و لكنها تمثل موقف شيوخ و لم تكن نابعة من سياسة الطريقة بحد ذاتها ، كما أننا نلاحظ تباين في مواقف الزوايا داخل الطريقة الواحدة ن لكن الحكم السلبي الذي أطلقته على الطريقة القادرية و التجانية في تونس هو ناتج من خلال تتبع مواقف زوايا الأم لطريقة .

و في إطار السياسة الفرنسية التي عملت على قضاء الطرق الصوفية ،نجدها انتهجت سياسة تدعيم العمل الجمعوي و الحزبي حتى يسهل عليها مراقبة المجتمع التونسي ، إلا أنها سارعت في العودة على القرار و استدراك الأمر بمجرد أن أصبحت الحركة الوطنية تشكل خطرا على السلطة الفرنسية ، و ذلك بتوظيف الشيوخ الطرق الصوفية لضرب الحركة الوطنية ، و كان نتيجة هذا الموقف لاعتقاد الطرق الصوفية بان مصالحها مهددة و تقلص نفوذها داخل المجتمع التونسي الأمر الذي جعلها ترى بأن الحركة الوطنية جبهة منافسة لها .

المراجع باللغة العربية:

1-أبو الوفاء التفتازاني، مدخل إلى التصوف،دار الثقافة للنشر و التوزيع ،القاهرة 1979 .

2- أبو بكر محمد بن الكلابادي ،التعرف بمذهب أهل التصوف ،تر محمود أمين السوادي ،ط2،مكتبة الكطليات الأزهرية، القاهرة ،.1980

3-أبو بكر جابر الجزائري ،إلى التصوف يا عباد الله ،دار البصير للنشر ،الإسكندرية ،(د.ت).

4-ابي نصير عبد الله علي السراج الطوسي اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي، تحقيق عماد زكي البارودي ،المكتبة التوفيقية ،، القاهرة ،(د.ت).

5-أحمد سكيرج ، كشف الحجاب عمن تلاقي مع الشيخ التيجاني من الأصحاب ، ط 3 ، سنة 1381هـ ،

6-احميدة عميراوي،رسالة الطريقة القادرية في الجزائر ،دار الهدى للطباعة والنشر ،الجزائر(د.ت)

7- الفريد بيل ، الفرق الإسلامية في الشمل الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة 1987.

8- الشرباصي أحمد ، الغزالي و التصوف الإسلامي ، دار الهلال ، (د.ب)، (د.ب) .

9-التليلي العجيلي ، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية ،منشورات كلية الآداب بمنوبة ، تونس 1992 .

10-المدني توفيق ، حياة كفاح ، الجزء الأول في تونس 1905- 1925 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1976.

11-الهاشمي القروي و علي محجوبي ، عندما أشرقت الشمس من الغرب ، الاستعمار و المقاومة ،منشورات الجامعة التونسية ، تونس 1881.

12-التليسي بشير رمضان ،الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الرابع هجري /العاشر ميلادي ،دار الإسلام ،لبنان (د.ت).

13- العيادي توفيق ، المقاومة الصفاقسية للاحتلال الاستعماري سنة 1881، دارالنجاح ، تونس 1992.

14- الأخضر لطيفة ، الإسلام الطرقي، دار سراس للنشر تونس ، 1993.

15- الخفاجي محمد عبد المنعم:الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة 1938.

16-الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، صفحات من حياته، دار الهلال القاهرة ، (ب ت).

17- النبال محمد البهلي ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، دار النجاح تونس ، 1965 .

18-الكلبي محمد شاكر ،فوتالوغيات والذيل عليها ،تحقيق إحسان عباس ،ج2 ، دار الثقافة بيروت ،1974.

19- بن العربي برادة علي حرازم ، جواهر المعاني و بلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني ، ج1 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر.

20-بن الأثير، البداية والنهاية،ج12،دار الثقافة بيروت،1975.

21- بوعزيز يحي ، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، ج1، دار الهدى للنشر و الطباعة و التوزيع الجزائر ، 2004 .

22-توماس أرنوك ، الدعوة إلى الاسلام ، (ب.د)، لندن ، 1896.

23- ثابت محمد و آخرون – دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الخامس،مطبعة مصر ، القاهرة 1963.

24- جمعه محمد لطفي: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق و المغرب ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ،القاهرة، 1975.

25-رشاد الامام ، سياسة حمودة باشا في تونس 1782- 1814 ، منشورات الجامعة تونسية ، 1980

26-محمد الصالح رزايقية ،أضواء على تاريخ سيدي عبد الشريف ،دار هومة ،2006.

27-محمد بن قاسم الزباني ، الترجمانة الكبرى ، (ب ت).

28-محمد بن بريكة البوزيدي الحسن ، موسوعة الطرق الصوفية (الطريقة القادرية) ،جزء 3 ، دار الحكمة الجزائر 2007 .

29- مؤيد العقبي صلاح ، الطرق الصوفية و الزوايا بالجزائر ، تاريخا و نشاطها ، دار البرق ، بيروت . 2002

31-عبد الرزاق محمد أسود:المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب-المجلد الثاني، ط1، بيروت .1981

32-عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مكتبة المدبولي ، القاهرة 1990.

33-عبد الحليم محمد:عقيدة الإكبار، دار الهلال ،القاهرة 1992.

34-عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ، الطبعة 1 ، القاهرة ، .2004

35 - فرغلي علي محمد ، محاضرات في التصوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة 1975 .

36-فاطمة داود ، التصوف الإسلامي مفهومه و أصوله ، حوليات التراث ، ع1 ، مستغانم .2004

37- قصاب أحمد ، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956.، ترجمة حمادي الساحلي ، الشركة التونسية للتوزيع ، 1986.

38-شعبان محمد إسماعيل، مختصر إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد الغزالي، تحقيق وتعليق، القاهرة، 1978.

المصادر باللغة الاجنبية :

1-Arcin, A : **Histoire de la Guinee Francaise** ,Editions Challamel, Paris, 1911.
2-Coppolani,x et Depont,o: **Les Confreries religieuses musulmanes**, Adolphe Jourdan, Alger, 1897
3-Lieutenant D'Arbaumont : **De L'infanterie coloniale a la confrérie Tijania-** situation et roles en Tunisie ,étude dactylographiée,Alger, 1941.

4- Roches, Leon . **Trente deux ans à travers l'islam 1832 – 1864** , Paris, 1884.

المراجع باللغة الأجنبية :

1-Ayadi , T : **Mouvement réformiste et mouvement populaire à Tunis 1906-1912** ,Ed Bargakh ,Tunis, 1986.
2 -Berque, Jaques : **Le Maghreb Entre Deux guerres** , Seuil, Paris, 1962.
3 -Gamil Abu Nasr, **Tijaniyya Sufi order in the modern world** oxford University Press, oxford, London, 1965
5-Mahjoubi Ali: **Les origines du mouvement national tunisien 1904-1934**, Ed Barzakh, Tunis1982.
6 -Mahjoubi et Karoui (H):**Quand le soleil s'est levé à l'Ouest**, Imperlalisme et rsistance , production ceres, Tunisie1881, 1983.
7-Monchicourt: **La région du Haut-Tell ,** Ed Adolphe Jouran 1898.
8 -Martel (A) **, Les Confins saharo Tripolitains de la Tunisie 1881-1911**,Presses universitaires de France , paris, 1965.
9-Rinn ;Louis **: Marabouts et khouans**,Ed jordan paris 1879.
10 -Timoumi (H) **: paysannerie tribale et capitalisme colonial**, l'exemple du centre- Ouest tunisien , 1881-1930 , Thèse pour le doctorat de 3ème cycle , Nice, 1975.

11-Trimingham, j.s : **History of Islam in west Africa** ,oxford university , press, oxford, 1978.

الرسائل جامعية:

1-بن يوسف تلمساني ، **الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر** ،جامعة الجزائر ، رسالة ماجستير ، السنة الجامعية 1997-1998.

2-جربي جلول ،**أسس النهضة عندعبد العزيز الثعالبي** ،رسالة دكتوراه الدولة في العلوم الاسلامية ، جامعة الزيتونة ،1987-1988.

المجلات :

1- على، المحجوبي . <<**مقاومة السكان التونسيين للإحتلال الفرنسي**>>، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 34/33 ، تونس ، جوان 1984.

2- عبد القادر، الهاني. << **الدور الاجتماعي و الثقافي للزوايا بجهة سليانة** >>،مجلة الحياةالثقافية ، العدد 26 ، تونس ، جوان 1983 .